صالح (١)2002
٢٢ فبراير ٢٠٠٢م
القاهرة _شبرا.

بعد شهر ضاع في البحث دون جدوى، مازال صالح في طريقه متروكًا في ذلك الغموض، فلا خيط من الضوء يمده بالأمل، يسير حزينًا بعد أن أهلكته مشقة البحث، توجه صوب بيته تتسابق يده لإنارته بعد أن بات موحشًا منذ أن ابتعدت راحيل، تحمل ذلك القبر بوحشته عسى أن تعود، لكن ذلك الأمل قد بتر بعد أيام قضاها في البحث عنها، جلس في تلك اللحظة بالخلف من الباب ينتظر عودتها، يظن أن صوت دقاتها الرقيقة لن تصل لمسامعه فتيأس من الانتظار وتعود إلى حيثما كانت، وهو على ذلك الحال ذهب في غفلةٍ رأى فيها راحيل، كما اعتاد طوال سنواته الماضية، لكن تلك المرة تشير إلى دفترها الأبيض الكائن على مكتبها. استيقظ كما اعتاد مفزوعًا، فأين هي؟ وإلى أين ذهبت؟ كم تمنى في تلك اللحظة أن تعود إليه حتى و إن كانت جسدًا لا روح فيه يستطيع أن يواريه الثرى، ويكن مسكنها ملجئه كلما اشتاق إلى الحديث إليها، لكن ذلك الأمل صعب المنال، فقد ضاعت هويتها، ولم يتبق شيء يذكره بها سوى تلك التميمة الملتفة حول يده، والتمثال الكائن أمامه بتنورته البيضاء الواسعة و قبعته الطويلة، بنية اللون. ذو اليد المبسوط لأعلى كأنها تستمد الخير من السماء، لتعود و تنشره إلى الأرض باليد المبسوطة، و بضغطة واحدة منه ترتفع أصوات السماء، كما كانت تصفه راحيل.

اتجه نحو مكتبها ممسكًا بذلك الدفتر الذي أبصر به في غفلته. جلس بالوراء من مكتبها و هم بقرأته. جاء فيه :

اليوم الأول من أكتوبر لعام ١٩٩٨م.

أستطيع أن أخبر نفسي اليوم بأن صالح قد تبدل. فذاك صالح الذي ما لبث إن وطأت أقدامه الجريدة حتى دخل في عداء معي لأفكاري التي تختلف عن أفكاره، طالما رأيته إنسان من حديد، البسمة لاتزر وجهه إلا قليلًا، وقد مر ما يقارب عام من اليوم الذي أخبرنا فيه أستاذ كامل بأن الشيخ صالح سينضم إلينا، و دوامه سيكون لأيام محددة ليباشر عمله كأحد كتاب الرأي الواجب عليهم تصحيح المفاهيم الدينية في أذهان القُرّاء بعد الأحداث الإرهابية التي وقعت في أحدى محافظات الجنوب خلال العام الماضي، وقد اتخذ كامل من غرفة مكتبي بالجريدة مكتبًا آخر لصالح حتى نتشارك نفس المكان، لكن أفكارنا كانت مختلفة لحد كبير، وقد كان ما رمى إليه كامل.

و في صباح هذا اليوم. في وقتٍ مبكر من ليلة الأمس الممطرة، حيث لا زالت أثارها على الجدران وفي الطرقات، بدأت الشلة تنفض رويدًا رويدًا، ولم يتبق إلا اثنين أنا وصالح الذي وقف بجوار سيارته وقال بنبرة حانية :
ممكن أوصلك يا راحيل.

ممتنة:
شكرًا يا صالح، حركب أي مواصلة، مش عايزة أتعبك معايا.

ولا تعب ولا حاجة، الفرق اللي بينا شارعين بس .

خليها مرة تانية .

متفقين ؟

هززت رأسي بالتأكيد، مما دفع صالح للاستسلام وتوديعي، تحرك بسيارته و أنا الاحقه بنظري حتى اختفى عن عيناي. بدأت أقطع تلك الطرقات ممسكة بمظلتي ذات اللون الأزرق، مسبلة الأعين، أسير في خطى ثابتة، فهل أندم على فرصةٍ كانت من الممكن أن تؤكد لي صدق ما أشعر به نحو صالح وما يشعر به هو نحوي. أحساس قلما شعرت به، فما سبق من مشاعر كانت مؤقتة ، أما دقات قلبي نحو صالح مختلفة، يملأها الخوف من الاندفاع في طريقٍ مجهول، رغم البشاشة والسعادة التي تملأ وجهي كلما رأيته أو شعرت بطيفه بالقرب مني.

اليوم الخامس عشر من أكتوبر لنفس العام.

أسرعتُ نحو مكتبي صباح اليوم وبدأت ألملم ما عليه في عجل و أضعه في حقيبتي، لم أترك على المكتب سوى تمثالي الصغير الذي تعلقت به يوم أن عثرت عليه منذ عامين، حينما طرق المجهول باب شقتي. وجدت ذلك التمثال مستقرًا أمام الباب، تصورت أن حياة هي من جلبته إليها كهدية كما اعتادت أن تجلب لها ما تتمنى نظرًا لتنقلها بين مناطق كثيرة في مصر وفقًا لطبيعة عملها، وعندما أخبرتها بالعثور على ذلك التمثال أمام باب الشقة وإنني ممتنة لفعلتها تلك، أقسمت لي غير حانثة بإنها لا تعلم عنه شيءٍ، حتى ظننت ولا زالت أظن بأن هناك روحًا خفية جلبته لي. وجهت نظري نحو الباب حيث يقف صالح الذي ما لبث أن وصل الجريدة في تلك اللحظة، و تسأل مستفسرًا:
خير في حاجة؟!

أطردت.

وليه؟

خلاف بسيط.

اِنفلت عائدًا لمكانه في هدوءٍ، أتخذ مجلسه بالخلف من مكتبه متظاهرًا بالانشغال... ألقيت بنظرة خاطفة على الغرفة ودلفت إلى الخارج، أسير في خطواتٍ متثاقلة بالممر الذي يفصل بين الغرف وقد لمعت عيناي بالدموع، توقفت للحظات أمام الجريدة أنتظر الأتوبيس لكنه لم يَأتِي، فإذا بي أبصر بصالح يقف بشرفة الجريدة يراقبني. بعد لحظاتٍ اختفى عن ناظري، حسبت أنه قد مل ، لكن رأيته أمامي يلتقط أنفاسه، وأَطْلَقَ زفرة حارة وقال:
أستاذة، ممكن أوصلك؟

صمت للحظة تخلصت خلالها من جمودي، وقلت في رقة:
ممكن.

اتخذت مجلسي بالمقعد الخلفي للسيارة أراقب الطرقات.
أستاذة راحيل، مالك ساكتة ؟

لم أستطع أن أتحدث. تمنيت أن يصرح بما في قلبه، لكنه أبى هذا اليوم. واثقة بأنه سيبوح بما في قلبه عما قريب.

اليوم. الخامس و العشرون من أكتوبر.

كانت رحلتي في أسوان عجيبة، غريبة، تأكد لي صدق ما أشعر به نحو صالح، و صدق مشاعره هو. باح بما في قلبه حين لاقيته هناك مصادفةً، أثناء مشاهدتي لظاهرة تعامد الشمس.
ربما يمكنني القول بأننا أصبحنا أصدقاء في الظاهر. لا يعلم أحد صدق ما نشعر به سوانا. أحداث كثيرة لا أود أن أذكر منها سوى أخر لقاء بيننا هناك.

فبينما كنا ندنو نحو بيت فارس عمي، تَأَنَّى هو المسير حينما قال لي "مشيرًا لمعصمي" :

إيه اللي في أيدك ده؟!

قلت و أنا أقلب النظر في يدي:
تميمة. جابتها لي صاحبتي حياة من غرب سهيل هنا جنبنا.

يعني إيه؟

أكيد أنت فاهم قصدي، أنا واثقة في عقلك.

أه، عارف يعني إيه تميمة، بس مش فاهم الغاية منها.

قلتُ هامسة:
أصلهم قالولي إنها بتجلب الحظ.

تسأل بنفس نبرتها:
وأنتِ مصدقة في كده؟

طبعًا لأ.

أمال؟

بص أنا حاشرحلك، هي حاجة متعلقة بالنفسية، يعني لو أنا عندي قناعة إنها بتجلب الحظ، حاتجلبه.

تسأل وهو يرفع حاجبيه عجبًا:
وضحي أكتر؟

يعني ممكن واحد تعبان بمرض مزمن وبرشامة "ريفو" تشفيه، طالما هو عنده يقين بإن الشفا فيها، أو بمعنى أصح، يكون عنده اليقين في ربنا أنه ممكن يشفيه بحاجة بسيطة زي دي.

طب ودي، التميمة يعني؟

نفس الفكرة، يعني بيقولوا عنها تميمة الحظ، بتمنع الأحلام، وبتطرد الطاقة السلبية.

ردد:
الأحلام. بتمنعها يعني؟

علي حسب ظنك.

حسبت أنه يراني في نومه مثلما أراه، فمنحته إياها بعد ما تأكد لي أنها لم تجدي معي، فربما تنفعه بدلًا مني .

وأنتِ؟

حاخد برشامة ريفو.

توقف عن السير واسْنَدَ ظَهْرَه على النخلة الشاخصة أمام البيت وقال بعد أن عقد يده حول صدره:
شكرًا يا راحيل.

و بشرفة البيت الخشبية زرقاء اللون، كان يقف فارس يرمقنا ويلوح لنا، انتبه له صالح فتبسم له ثم أعاد نظره نحوي وقال:
بعد أذنك، ممكن أدخل معاكي البيت أسلم علي فارس قبل السفر.

اليوم. ليلة عام جديد ١٩٩٩م

إني أكتب لنفسي بعد أن شعرت بأن هناك حنين شديد يشدني نحو الكتابة ، أكتب رسالتي لصالح وأنا على علم بإنها لن تصله، فإذا ما نجاني الله أستطيع أن أخبره بما في قلبي، وأن كان الأمر غير ذلك فسيموت معي دفتري الأبيض عسى أن يكون كتابي عند الله كذلك، محى المرض فيه أي وزرٍ قد اقترفته، فلا أقوى على إرسالها إليه لإنها ستعيد الحزن إليه بعد أن هجره، فإنني جد

منهارة...جد منهكة، كيف أصرح له بأن الروح التي يكتب إليها كل يوم مهددة بأن تزول في وقتٍ قريب، تمكن المرض من ثوبها وهي لا تدري.
خيل إليَّ أن ما يحدث حتى الآن ما هو إلا قصة لازلت اقرأها ولم تنتهي، أنتظر من يَأتِي كي يوقظني من غفلةٍ قد طالت، وبعد طول صراع يتضح لي أن تلك لم تَكن غفوة، بل هي صفحة في كتاب الحياة، حتمًا سأفرغ من قرأتها، لكن متى؟ وكيف؟ تجوب عيناي تلك الورقة لعلي أطلع على ما هو أتي، لكني أجدها فارغة لا تحمل إلا ما قد مضى من أحداث لن تعود، وإن ذلك الفراغ يمتلئ مع كل خطوة من خطانا، نولد صفحةٍ بيضاء تسطرها أفعالنا،و إن ما يحدث مُقدر قبل أن نصبح أجنة في علم الغيب، حيث لا شأن لنا بما هو دائر على مسرح الحياة.

٣١ يناير ١٩٩٩م

اليوم. أخبرت صديقتي حياة صالح ما قد حل بي من مرض. فوجئت بزيارته لي بالمستشفى. بدأ يلومني عن اخفائي سر ذلك المرض عنه، لكنني كنت على علم بأن مرضي قد تشابه مع مرضها لأمه. مثلما ورد لي في إحدى رسائله التي كان يحفظها مع حياة..

أبصر صالح برسالة مطوية داخل الدفتر، و إذا بخطه قد كُتب به :
راحيل":
كم تمنيت أن ألتقي معكِ منذ سنوات وأقص عليكِ ألمي. أخبرك عن ما أكنُّه بداخلي نحوك من امتنان قبل أن أصرح بحبي، أخبرك بأن كلماتك كانت تمدني بالقوة والصبر والإيمان أيام عانيت فيها من المرض، والفقد، والضعف، ولم يكن لإيماني وتوحيدي ليكتمل ويقوى إلا بكلماتك التي تعودت قراءتها كل يوم بالجريدة، كنت أشعر أن تلك المقالات ما هي إلا رسالة تمدني بالأمل والحياة، حتى قرأت إحدى المقالات وتركت الجريدة على المنضدة الموضوعة بجانب أمي الجالسة على مقعدها، شاحبة الوجه، ضعيفة الجسد، ولا تملك سوى بسمتها التي توجهها لي، كي تشعرني بأنها في حالة جيدة، لكن في تلك اللحظة بهتت الابتسامة و تجمدت أطرافها وهتفت باسمي بصوتٍ مبحوح، بُهتُّ ووجمت وارتعش جسدي خوفًا، وقلتُ بصوتٍ حزين:
- أمي نعم.
أمسكتُ يدها محاولاً أن أقبلها، لكني شعرت بها تنسحب من يدي، انقطعت أنفاسها ومضت هي إلى مقامها ومستقرها إلى أن يشاء الله، ومضيت لطيم الأب والأم، كرهت حديثك وكلماتك لأنها باتت تذكرني بذلك اليوم المشؤوم، وعندما رأيتك بعد رحيلها عادت لذهني صورتها، لا لمقالتك التي كنت أقرأها في أثناء مرضها، لكن لملامح الوجه التي تشابهت معكِ

كثيرًا، حتى كدت أجزم بأنها بُعثت من جديد في صورة شابة ممتلئة بالحيوية والمرح، حاولت مرارًا أن أكف عن رؤيتك في منامي لكن الأمر خارج عن إرادتي متروكًا لقلبي وعقلي، ولم يكن هناك سبيل للتخلص منكِ سوي بقتل تلك المشاعر، أخذت منكِ التميمة ظنًا مني أنها وسيلة التخلص من رؤيتك، لكن كلما نظرت إليها تذكرت أنها منكِ.

كثيرًا ما كذبت ما أشعر به نحوك وحسبت أن الأيام قادرة على محوه، لكن ذلك الرباط أقوى من الأيام، شعرت بحنين شديد يشدني إليكِ، فوجدك كياني وكينونتي، ذلك الذي لم يقوَ إلا حينما ابتعدتِ، فظل قلبي حائرًا هائمًا لا يعلم مستقرًّا، ولم تُجدِ تلك التميمة الملتفة حول يدي، بل شعرت بأنها ملفوفة حول عنقي، ذلك حينما عادت لي رؤيتك في نومي بل لم يكن طيفك مفارقًا لي، بحثت عنكِ في كل مكان ولم أجدك سوى في أعماق نفسي، فكيف لي أن أصل إلى تلك الحالة من الهيام والشوق؟ أنا الذي تعودت الجفاء، لكن ثمة شيء تغيرت بداخلي عندما أصبحت أسير كلماتك.

دمعت عينه لصالح، و عاد يقرأ.

لكني اليوم سعيدة رغم ما قد حل بي. كل شيء سيزول بأمر الله.

١٩ فبراير ٢٠٠٢م.

طال غيابي عن دفتري، لكني عدت أسجل به من جديد. تخطيت كل شيء، الألم، المرض، و الآن تخطيت الحب... بمرور الوقت يُصيبنا الفتور وتفقد الأشياء بريقها، أكان للتعود اليد في ذلك؟ أم أننا ننجذب إلى كل ما هو غير مألوف؟ وعندما نتعود الشيء ننحيه

جانبًا ونبدأ في رحلة البحث عن كل جديد ذو بريق في أعيننا، رغم أن الشيء ذاته قد فقد بريقه لدى غيرنا، أصبحتُ في أعين صالح شيئًا عاديًا، لم تعد تُدهشه كلماتي وقل انجذابه نحوي، لم تكن حياتنا كما توقعها الكثير من المحيطين، فلازال صالح يبحث عن أمه بعد أن تأكد له أنني صورة جامدة لأمه لا حراك فيها.
ولم يكن لي قرار سوى الفرار كي أكمل القراءة؛ لأننا لا نملك في تلك الحياة إلا قراءة أسطر القدر، نظن أننا نتحرك كيفما شئنا وأينما أردنا، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإننا نُساقُ إلى قدرٍ مجهول، لا علم لنا به، لكنه معلوم عند خالقنا، أبصرناه من قبل عندما مر علينا ما حدث وما سيحدث عندما كنا في عالم الغيب، لكن أبت عقولنا الإحتفاظ به حتى تجعلنا حائرين ...مشردين... نترقب في كل لحظة اللحظة التالية، نحلم ونتمنى ونشيد من الأحلام صرحٍ يتهاوى في لحظة غرور... تكبر... أنانية، نختار قدرنا بأيدينا ونندم بعدها على ما فعلنا، ولكن من يعلم المختار؟ أنختار نحن أقدارنا ؟ أم تختارنا هي؟ لا نعلم أن كنا نحن المظلومين أم الظالمين، نظلم أقدارنا أم تظلمنا هي؟ ولكن بالأحرى القول بأننا نظلم أنفسنا، تفاقمت الخلافات، و لا سبيل سوى أن أرحل تلك الأيام في زيارة لعمي فارس بأسوان، سأستقل القطار في الواحد صباحًا.

انتهى صالح من القراءة. رقت عيناه بالدمع و هو يتذكر ما كانت تتحدث به راحيل، و أن لحياتنا نصيب من أسمائنا.

في صباح اليوم التالي، اتجه صالح نحو مكتبه بجريدة القارئ، و كتب رسالة أمر بنشرها في الصفحة الأولى. جاء فيها :
ماذا لو كانت الكاتبة "راحيل صادق"، بيننا، تلك التي اتاحت للجميع ملامسة المشاعر. تخيلوا و اكتبوا إليها رسائلكم.

سنختار كل عام في شهر فبراير رسالة واحدة ستُنشر في عدد مخصص، تحت اسم، رسائل لم تُقرأ. عدد باسمها لراحيل.
رئيس التحرير:
صالح عبد الوهاب
القاهرة. فبراير ٢٠٠٢م

الجيوشي:
2004

.
أكتب إليكِ الآن بعد أن انقطع صوتك عن الحياة. ربما ما فعله صالح سيُشعر القارئ بوجودك بعض الشيء، لكن ماذا عني؟!
ماذا عن الذين تعودوا على صوتك وضحكتك؟!

ماذا لو كنتِ معي الآن لأخبرك بما رأيت من أسرار الحياة؟!
، تلك التي طالما بحثتي عنها، و كان موتك سرٌ من أسرارها.
انتظرت زيارتك لي، حتى أقص عليكِ ما رأيت منذ سنوات، فلطالما خشيت أن تنجذبي نحو ذلك المجهول. مستقر الجيوشي، أحببت أن تُكملي حياتك كاتبة تحقق ما يشاء الله لها من نجاح، و حين قررت أن اتخلى عن صمتي و أخبرك عما رأيت، رحلتي، و الآن، بعد أن رحلتي، لا يسعني إلا نشر قصتي هنا.

في إحدى مقالاتك كنتِ تخبري فيها القارئ بأن..
كل ما يتبادر إلى أذهاننا من تفسيرات نحو الغموض الذي نراه أحيانًا في تلك الحياة، قد تكون صحيحة إلا في حالات قليلة يمكن أن تُحصى منذ بدء الخليقة، و قد يُغير فهمها الصحيح مجرى حياة الفرد، أحيانًا يدفعه للخير أو الشر، و نادرًا ما يجعله في مفازةٍ من الدنيا والآخرة.

عندما قرأت تلك الكلمات، حدثت نفسي بأنني لا علم لي بالمصير الذي تنتظره أفكاري؛ لأنني بحكم دراستي و عملي عقلاني لا أُصدق إلا ما أراه أمامي و لا اهتم سوى بالماديات، و غير ذلك كذبة، وهم، أي مبرر يمكن أن أنفي به ما أرى من أشياء يراها البعض أسرار تلك الحياة...كما تعلمين.

منذ اليوم الذي انتقلت فيه للعمل هنا وأنا مشدد، تهاوت كل معتقداتي و شرعت بناء معتقدات جديدة، لكن تهاوت هي الأخرى، فخلعت نعلي و بدأت التحرك في طريقٍ مجهول.

كان أول يوم لي في تلك القرية و بيتي الجديد طبيعي للغاية، أخذت أُساعد هناء في ترتيبه، كنت أنتقل من غرفة إلى أخرى أكتشفها؛ لأن الغموض فرصة ينتظرها كل عفريت كي يوهمنا بكل ما هو غريب.

سكن الليل بعدما أنهكت قوتي طيلة اليوم، كنت في حاجةٍ إلى الراحة، خيل إليَّ أنني إذا ما ارتميت على فراشي سأذهب في نومٍ عميق، لكن طيلة الليل صاحبني أرق شديد و لم أنم، أتقلب ذات اليمين و ذات الشمال و أنا على نفس الحال، و الغريب هناء في سُبَاتٍ عميق، بعد لحظات سمعت صوتٍ يعلو بقول:
- "واحد حي". و تفوح مع تلك الكلمات رائحة عطر ملأت الروح بالقشعريرة، و العين بالدموع، وذهبت بالجسد في إغماءةٍ حتى شروق شمس الصباح.

تتابعت الأيام لا تحمل جديدًا، بدأت عملي في المستشفى دون أن يحدث شيء غير مألوف سوى رائحة البخور والرجل الذي يعلو صوته بالتسبيح، مع دقات الساعة الثانية صباحًا يَأتي الصوت وتتبعه الرائحة فأذهب في نومٍ عميق، ازداد شكي نحو ذلك الصوت و أخذت الأفكار تطاردني كل مساء، لكن ذلك الرجل يقطعها بصوته، مع مرور الأيام، بات الرجل دالًّا على الساعة بدلًا من أن تدل هي على قدومه، خيل إليَّ أن هيئته تشبه "دراويش السينما" نفس التصور الذي يمكن أن يتجسد أمام عين كل من يقرأ تلك الكلمات، و لأن عقلي رفض أن يقتنع بذلك الوضع الغريب، و قلبي يتملكه الخوف الشديد، قررت أن أنتظر قدومه.

أمام البيت جلست ليلًا منتظرًا أن يمر، و مشاعري متذبذبة بين شوق لرؤيته و بين رهبة الموقف، و بينما أنا على ذلك الحال دقت الساعة الثانية، سمعت صوت الدرويش، وداعبت خياشيمي رائحة البخور، رأيت دخانه لكن لم أرَ سواه، فلا يوجد درويش و لا غير الدرويش، الطريق فارغ و ليس به شيءٍ سوي الدخان، هرب النوم من عيني في تلك اللحظة و توجهت للبيت، و أخذت أُردد و أنا أُغلق بابه:
وهم... أرق... قلق، ربما!
لكن ليس بشيءٍ خارق، صعدت درجات السلم و أنا حائر، عقلي يحاول نفي ما حدث، و قلبي يتزايد خوفه.

مرت الليلة وكانت تلك الليلة هي أصعب الليالي التي مررت بها في حياتي، عقارب الساعة مثبتة والنهار يأبى الإشراق، و بين ذاك وذاك تتصارع عيني التي ترغب في الراحة، مع عقلي الذي يأبى الراحة حتى يُبصر الحقيقة، وأنا بينهما جسد لا روح فيه، بعد ساعات ذهبت إلى المستشفى، جسدًا مرهق، و عقلًا مشدد، و عينًا تزداد احمرارًا، أشير إلى زملائي من بعيد من دون أن أرى من أوجه إليه الإشارة.

جلست على مكتبي دافن وجهي بين كفوفي. ذهبتُ في غفلةٍ أيقظني منها صوت زميلي صادق و هو ينادي، رفعت وجهي وأخذت أفتح عيني بثقل، وأنا أتساءل بصوتٍ ضعيف:

- ماذا تريد يا صادق؟
جلس أمام مكتبي، وقال:
- لا شيء... لكن حالتك اليوم غريبة، هل أنت مريض؟

* لا، لكنني مرهق.

تركني و عزم الذهاب لكنه توقف عند باب الغرفة قليلًا، والتفت لي، و هو يقول:
- أخبرني، هل رأيت الشيخ الجيوشي؟

*من الشيخ الجيوشي هذا؟ وأين أراه؟

- كثيرًا ما تتساءل، فهذا يؤكد أنك لم تره.

تركني والحيرة تتملكني، و أتساءل من يكون الشيخ الجيوشي هذا ألا يكفي الدرويش، و من هنا ربط عقلي بين الدرويش و الشيخ الجيوشي. رجحت أن الجيوشي ربما هو الدرويش.

عدت إلى البيت فاستقبلتني زوجتي بإبتسامة عريضة، و قالت برنة سعادة:
- الشيخ الجيوشي بشرني بصبي.

- من الذي بشرك؟!

كررت قولها:
- الشيخ الجيوشي.

فلقد تكرر ذلك الاسم على مسامعي للمرة الثانية في اليوم ذاته، فأي صدفة هذه؟ طلبت منها أن تقص لي ما حدث، فسردت:
- في وقت الظهيرة طُرق الباب و كان به جارتنا السيدة فاطمة، طلبت مني أن أذهب معها عند الشيخ الجيوشي لأنه طلب حضوري معها اليوم، لبيت طلبه دون تردد. وصلت معها إلى بيتٍ بسيطٍ في نهاية القرية، دخلت من بابه وإذ برجل على رغم اسمرار وجهه إلا أنه منير، يقول:
- تقدمي يا هناء.

جلست أمامه فطلب مني أن أقص له ما رأيت ليلة أمس في منامي، و بعد أن قصصت عليه المنام، قال: -
اذهبي فإن الله سيرزقك بصبي بإذنه هو سبحانه.

- هل أخبرتي أحدًا من قبل بذلك المنام؟

- لا، لم أتعود ذلك بل أتناسى المنام بعد لحظات... عدا ذلك.

- و أين السيدة فاطمة؟

- تسكن في البيت المقابل لنا.

طلبت من هناء أن تُحضر السيدة فاطمة حتى أعلم منها قصة ذلك الدرويش، جاءت السيدة فاطمة و قصت لي في سلاسة و حكمة:

- لقد كنت في علم الغيب عندما حدث ما سوف أقصه عليك الآن، لكن ذلك وصلني من أمي و من جدتي رحمهما الله، كانت أمي تقول عنه:
- رجل كريم، قلبه كبير، أحبه الجميع، قصته تبدأ منذ سنواتٍ بعيدة حينما حل بقريتنا القديمة قحطٍ شديد مات على إثره الكثير، حتى حضر عراف إلى القرية سأله بعض الغاوين عن موعد انتهاء ذلك القحط؛ فنبأهم بأن هناك مولودًا كريمًا سيولد بعد يومين لأم فقيرة مات زوجها ومازال الجنين في بطنها في ذلك المكان، "مشيرًا إلى الأرض التي يجلس عليها وهي أرض فضاء"، تعجب المستمعين من ذلك، وتابع قوله:
- بميلاده سينتهي القحط من البلاد..

اختفى ذلك العراف بعد ساعات من قدومه، و بعد عدة أيام استمع أهل القرية إلى سيدة تصرخ في ذلك المكان الذي أشار إليه العراف، كانت تضع وليدها في ذلك الوقت، أكرمها أهل القرية حينها إذ رأوا فيها تحقيق نُبُوءَة العراف، كان ذلك الطفل هو الشيخ الجيوشي، بعد سنوات اختفى الجيوشي أو فارس لا أدري أي مسمى هو الأسبق له، و في أثناء غيابه صدر قرار تهجيرنا من بلدتنا الأصلية إلى هنا.

كنتُ في الحادية عشرة من عمري، حينما رأيت أهل القرية يستعدون للرحيل في زحامٍ كأنه يوم الحشر، في ليلة تتشح بالسواد حزينة على فراق أرضنا تلك، تركنا النيل، و النخيل ، و البيوت الكبيرة المزخرفة، و جئنا إلى هنا ومعنا سيدة عجوز قالوا عنها إنها أم فارس، تعودنا الإقامة وبدأ أهلنا في نقل تراثنا إلى تلك القرية، و بعد عشرين عامًا من التهجير، في ليلةٍ كان القمر فيها بازغًا، سمعنا صوتًا مناديًا، يقول:
- لقد عاد فارس.

ومنذ ذلك الحين و هو يقطن بيتًا في آخر القرية، يسكنه و يستقبل فيه السائلين، و كل من له حاجة.

قصة غريبة كادت تؤكد لي أن الدرويش هو الجيوشي، و مع مرور الأيام اختفى الدرويش و لم تظهر أي من الأمور الغريبة، حتى جاء اليوم الذي أخبرتني هناء فيه بصدق حديث الجيوشي بعد سنوات حرمان من الأطفال، تسرب الشك إلى قلبي؛ فتوجهت إلى بيت السيدة فاطمة كي أتبعها إلى بيت الجيوشي، ذهبت معها إلى دار في آخر القرية وتركتني عند بابها، وقالت:
- أكمل طريقك، فهنا ستجد كل ما تريد.
و انصرفت.

دلفت أنا من الباب فشعرت بنفس تلك الرائحة التي غرُبت عني منذ مدة، بدأت في التحرك حافي القدمين، و من حولي يجلس أُناسي لا تنصرف أعينهم عن المصاحف المستقرة بين أيديهم، و غيرهم مسبحون، و البعض ساجدون، كأني في الملأ الأعلى، و بين هؤلاء أبصرت شيخًا كبيرًا في السن طلب مني الجلوس بعد أن جلس مستندًا إلى حائط ورائه، جلست أمامه خائفًا مترقبًا، و سألته بحذر:
- أنت الجيوشي أم الدرويش؟

تبسم بسمة رقيقة، و قال :
- أنا الاثنين.

ثم صمت لبضع لحظات، قال بعدها:
- و أنا أيضًا فارس، اسمي نفس اسمك لكن قدري لم يكن قدرك، بل النهاية واحدة، نهاية حياة وبداية أخرى تتناسى معها كل ما مضى حلوه بمره، لأنك فيها لا تقوى على أن تميز بين الحلو و المر، فتلك الحياة تنسيك معنى المر و تغترف منها معاني أسمى.

- و لِمَ أنا دون غيري؟!

تبسم ساخرًا، وقال:
- يا فارس أنت لست الأول ولا الأخير، الكثير جاءوا إلى هنا دون أن يعلم أحد سواهم و أنت واحد من هؤلاء، و جهلك بوجود غيرك راجع لبعد هؤلاء عن الحياة، فلا تتعجب... فهناك أسرار للحياة لا يمكننا أن نُدركها بعقولنا، فالعقل دون قلب كالجسد بلا روح.

و منذ تلك اللحظة أصبحت دار الجيوشي ملجئي في كثيرٍ من الأحيان، أنصت فيه لصراخ قلوب هؤلاء الدراويش من فرط العشق، أما صباح يومي في المستشفى أستمع فيه لصراخ المرضى من فرط الألم، و أنا بين هؤلاء لا أعلم مستقرًا.

أُرسل إليكِ ذلك الخطاب الطويل و أنا على ثقةٍ بأن تلك الكلمات ستملأ قلبك شوقًا . أنتظرك يا راحيل في أقرب فرصة، أود رؤيتك يا صديقتي حتى نبحث معًا عن أصل ذلك السر، لكن هل لنا أن نتذكر الحياة الدنيا حين نلتقي في جنة الخلد؟!

قد كنت عطرًا
2004
عن أحداث حقيقية..

في الكون أسرارٌ هائمة هناك من يحلق إليها وآخر تنحدر إليه، والبعض حياته هي السر الأكبر، سر الحياة والموت، أُرسل إليكِ يا ابنتي قصتي، قصة سطرها القدر وكنتُ أنا بطلها.
غريبة حقًا هذه الحياة، قرأت مقالًا لكِ من قبل كنتِ تتحدثِ عن أهل الله وجاء وَصفُهم فيه بأنهم:
من نظروا للدنيا بعينٍ زاهدة وللأخرة بعينٍ راضية، هؤلاء الذين رأوا في الدنيا دارٍ فانية ولم يروا في الآخرة سوى جنةٍ.

أخذت اتسأل في قرارة نفسي:

من أين لكِ بتلك الكلمات؟ فلقد سمعتُها منذ ثلاثون عامًا حينما أبصرت ما لم يبصره أحد، أو ربما رأي البعض ما رأيت ولم يفصحوا بذلك، فحفظوا السر وذابوا فيه.

دائمًا ما كانت الحياة ترفض بعدي عنها منذ اللحظة الأولى التي خلقني الله فيها، فكم من مرة برهنت علي حبها وتعلقها بي، لكن من المتمسك أكثر بالآخر أنا أم هي؟!
الإجابة هي تمسك القدر الذي يأبى أن أفارق الحياة قبل أن اقرأ أخر سطر في كتاب قدري.

مات أبي وأنا لا أزال مُضغةً في رحم أمي، وأمام فقرها وصغر سنها الذي لم يتجاوز سبعة عشر عامًا قررت أن تتخلى عني، لكن وسائلها لم تجدِ وتمسكت بي الحياة بقوةٍ، طافت بي أمي في أنحاء البلاد باحثة عن الرزق لكن دون جدوى، و خرجت أنا إلى الدنيا بصرختها في أرضٍ فضاء في القرية الجديدة التي ارتحلت إليها، تجمع حولها أهل تلك القرية و أكرموها خير إكرام، و كأن قدرها ساقها إلى هناك حتى تجد الراحة بعد الألم، بعد ما يقرب من خمسة أعوام أكرمنا خلالها أهل تلك القرية، أطلقوا عليَّ اسم "المبروك"، ولم أكن أدري معنى ذلك الاسم و أنا طفل لم أتجاوز الخامسة من عمري، لكن تلك الحفاوة والتكريم كانت توقع في نفسي السعادة والتفاخر.
بمجرد أن تطرق يدي الصغيرة باب بيت كانت تحل عليه رحمة الله وينعم أهل ذلك البيت بالخير، لم تقتصر تلك البركة على يقظتي بل صاحبتني أيضًا في منامي، رأيت في إحدى المرات أنني اصعد مع كثير من الناس معراج وعلى حافتيه آيات منقوشة، و صلواتٍ على النبي الكريم، متبعين رجل لم أرَ منه سوى الجلباب الأبيض الذي يرتديه، كان ينشد مديحًا في وصف النبي، و أنا من ورائه أردد، قائلًا:
- هذه الدنيا تزولُ والبقاء ليس يطولُ، أين من يمشي يقولُ كن شفيعي يا محمد.

و حينما أخبرت أمي بتلك الرؤية تبسمت، و قالت لي:
- هل كنت تعلم من هو الرجل ذو الجلباب الأبيض و أنت في المنام؟
- نعم يا أمي، كنت أعلم أنه.....

ولم أكمل حديثي... منعتني عن الإجابة، و قالت محذرة:
- لا تُخبر أحدًا بما رأيت.

بلغتُ الخامسة عشرة من عمري وبلغت شهرتي ذروتها، حتى وصلت أنباء ذلك الصبي المعجزة القرى المجاورة، قصدني الكثير، وأصبحت أقرأ القرآن في جميع المناسبات التي تحل بالقرية، و بعد سنوات وقع في قلبي الطمع وقررت أن أرتحل، كانت أمي تبكي و تتوسلني بأن لا أرحل،
و قالت لي:
- لا ترحل، لا تطمع في أكثر مما منحك الله إياه.
* أنا لست بطامعٍ، فهناك الكثير ممن يدعون العلم بالقاهرة ويهرول إليهم الكثير من الغاوين، أما أنا فلدي الكثير والكثير من أسرار الوجود التي لا يعلمها إلا القلائل.
- إن الله لم يرفع عنك حاجبًا من نوره إلا لاختبارك، لا ترحل وأكمل حياتك هنا.
* لا تقلقي، عام واحد كافي كي يجعلني من المشاهير الأغنياء.
- الغنى غنى الدين، احفظ ذلك السر الذي وضعه الله في قلبك ولا تبوح به... فمن يبوح بالسر تباح دماؤه.
*لا تُغريني بكلماتك العذبة هذه، فكيف لدمي أن يُباح؟
- ستعلم حينها، تذكر حديثي هذا يا ولدي، وعندما يباح دمك لن تجد من يُنجيك سوى التضرع والخضوع والتذلل على باب الرحمن، تشتاق لنظرةٍ واحدة منه تشفي الجرح وتعفو عنك.

لكنني تركتها و ارتحلت عن القرية، و في ربيع العمر أصبحت حياتي مثل الكمان، كلما تقدم قوسه على أوتاره سمعت أجمل الألحان، و هكذا كانت سنواتي، أحببت و كرهت، سافرت و تزوجت، وجنيت من المال الكثير، و رزقني الله بالبنون ليضيفوا للحياةِ زينة أخرى غير اللهو واللعب، وكلما تقدم بي العمر تمسكتُ بالحياة و تمسكت هي الأخرى بي، لكن تحول عزف الكمان إلى ناي يعزف أحزن الألحان، لتكن تلك الألحان خلفية أيام حياتي الأخيرة في عالم اللهو قبل صحوة القلب و العقل.

في لحظة من اللحظات يَأتِي ترتيب القدر؛ ليصبح أي ترتيب بشري لاغي، ولأبسط الأسباب، و بسبب شعلة واحدة من النار ذهبت زينة الحياة، حرق المال، و مات البنون، و تحول ربيع العمر إلى خريف، وذهبت تلك النعمة التي كفرت بها، و لم أستطع السباحة في نهر الحياة، أصبحت بين خيارين كل منهما أقسى من الآخر، إما التكيف مع الحياة وإما إختيار الموت، و لأن الروح تخشى

الموت والجسد يرفض البقاء، وقف عقلي في مفترق الطرق، وذهب في اتجاه ثالث هو الحياة والموت معًا دون أن أواجه ما أخشاه في الحياة و ما يفزعني من الموت، جلست لسنواتٍ على باب الله أنتظر إحسان المارة، منحت الأمل للكثير لكن لم أستطع أن أمد روحي به، اكتفيت بنظرة السعادة في وجوه من أمنحهم الأمل في الحياة، ومازالت كلمات أمي تتردد على مسامعي، أراها في نومي ويقظتي باكية على مصيري هذا، وتقول:
- لذ بحمانا يا فارس، فلقد دلفت من باب الرحمة دون أن تطرقه، لكن الشيطان أغرك كما أغر أبويك، وحينما أرادك الله طردك من نعيم الدنيا وأذاقك مرها، كي تفر إليه بقلبك وعقلك، تجلس ذليلًا على باب عزه عسى أن يرفع المولى عنك حجابًا من نوره، و يصبح التخلي بداية التجلي.

إشتقتُ لأمي فعدُ إليها سائلًا الله أن أجدها على قيد الحياة بعد كل تلك السنوات، وتوجهت إلى قريتنا الجديدة، وعندما تأكد لي وجودها اختفيت عن الجميع في بيداءٍ خالية لا يُسمع فيها دبيب، أصبحت في كل ليلة ارتدي البردة الحمراء، فكانت هي الشيء الوحيد الذي تركه أبي، وذلك بعد أن يتوضأ جسدي ومن قبله قلبي، أنطلق في الصحراء علي غير هُدى، أُسبح بحمد ربي واستغفر، حتي تشكو قدمي من ألم المسير واستقر حيث شاء الله وابدأ في صلاتي معلنًا التوبة، في أحدى تلك الليالي غفلت عيني ولم يغفل قلبي، فرأيت بعين القلب رجل وجهه كالقمر في ليلة التمام يطلب مني المسير معه في الصحراء، لبيت النداء وأخذت اتبعه في السير لا أتحدث ولا هو يتحدث، بل يكتفي بتلك البسمة الصافية، كسرت أنا الصمت وسألته:
من أنت أيها الرجل الكريم؟

تبسم الشيخ في عذوبةٍ وقال:
عبد من عباد الله.

نحن أجمعين عبيد لله نعبده ولا نعبد سواه.

قال الشيخ:
لكن هناك من يعبده طمعًا في جنانه ونحن نعبده حُبًا في صفاته.

صمت لحظة ثم قلت هامسًا:
من أنتم يا شيخ؟!

نحن من نظروا للدنيا بعينٍ زاهدة، وللأخرة بعينٍ راضية، هؤلاء الذين رأوا في الدنيا دارٍ فانية ولم يروا في الأخرة سوى جنةٍ.

كيف لي أن أُصبح مثلك يا شيخ ؟

تركني وأخذ في الابتعاد ثم التفت وقال صائحًا:
بقلبك يا جيوشي.

كيف ذلك يا شيخ بعد أن شاب قلبي؟

صاح لي مرة أخرى وهو يقول:
قلب المؤمن لا يشيب... قلب المؤمن لا يشيب.

فتحت عين الوجه فسقطت أدمعي، ومنذ ذلك اليوم وأسمي هو الجيوشي بدلًا من فارس. توجهت لأمي بعد عامين من الابتعاد والاعتكاف طالبًا هدي الله، وهناك وجد الكثيرين من أصحاب الحاجات جالسين أمام بيتها كأنهم دليل علي قبول توبتي، بعد فترة قصيرة ذاع صيتي أنحاء البلاد، وقصدني الكثير الباحثين عن الهدي، حتى أصبح بيتي ملاذ الذاكرين والذاكرات.
غابت أمي عن الحياة لكن لم تغب عني، فكنت دائمًا أراها في منامي تطوف في الطرقات وتنبع منها رائحة عطرٍ ذكية، فشرعت في تنفيذ ما كنت أرى في منامي، وبدأت السير في الطرقات ليلًا أغمرها بتلك الرائحة، وعندما كنت أتلفت حولي أثناء السير أجد أنني ضللت الطريق وأسير في طرقاتٍ أخرى ليست بعالمي، ومر العمر أكثر وأكثر وأصبحت على حافة الموت وأنا في العقد العاشر من عمري، في الأمس القريب كانت أمي تريد أن تتخلص مني، لكن حتي الآن لم يأذن الله، ليزداد شعوري بأنني غريب في تلك الحياة وأنني أقرأ الصفحة الأخيرة في كتاب قدري.

هذه هي الحياة نتحرك فيها كيفما شائنا، ونسعد لذلك الأختيار لكن الحياة هي من تسوقنا إلى حيثما أرادت، وأنتِ واحدة من هؤلاء، ولا علم لكِ بما سوف يحدث، لكن كوني على ثقةٍ بأننا نفر من قدر الله لقدر الله، لكنه لم يكن من اليسير أن يقف الإنسان أمام نفسه كي يصارحها بكل ما بداخله من صراع لكن الأصعب أن يجد كل ما يدور بداخله من صراع ما هو إلا وهم، ليندم حينها على كل لحظة أضاعها وهو أسير ذلك الوهم، فكانت مشاغل الحياة هي أكبر وهم.

حياة
٢٠٠٥م.

في ساعةٍ مبكرة من اليوم الأول من شهر ديسمبر لعام ٢٠٠٥. دق باب البيت مبكرًا، كان به الحاج أحمد والدها لحياة صديقة راحيل، قال لي :
آسف يا ابني على الوقت اللي جيت فيه، لكن جايب لك رسالة.

خُيل لي أن راحيل لم تمت، و قد نجاها الله من ذلك الحادث . و الآن ترسل لي رسالتها بعدما قرأت رسائل القراء في الأعداد الأخيرة من مجلة القارئ.

و لأن الحقيقة ليست كما يُخيل إلينا، فقد كانت رسالة من صديقتها حياة، تخاطبها قائلة :

راحيل،
إليكِ رسالتي:

لازلت أتذكرك يا صديقتي و أتذكر حديثك، و بسمتك ، و حكمتك ، أرجو أن تقبلي اعتذاري عن ذلك الأسلوب الضعيف في الكتابة، و لِمَ لا يكون ضعيف و قد وهنت أنا من قبله، و عزائي الوحيد فيما أصابني الأيام القليلة السعيدة التي عشتها هنا، سأُذكرك بما قد سبق، منذ اليوم الذي رأيت فيه مهدي في التلفاز و أنستُ صوته و حديثه و انشغلت به عمن سواه، رغم أن حديثه كان عن الصراعات التي تمر بها بلاده، و أخبرتك بما أشعر به من شعورٍ جديد لم أتعوده من قبل، و أكتفيتِ بأن تطلبي مني التمني، حتى سمح لي القدر رؤيته و أصبحت مرشدة له في أحدى زيارته لأسوان، ففي اليوم الذي تحقق فيه ظني وقفت أمامه لا أعي شيء سوى الإنشغال بحركاته، و صوته، وهيئته... كي أبرهن لقلبي إنني لم أتوهم حبه، ظل هو كذلك واقفًا أمامي لا يتحدث و كأن أرواحنا تلاقت من قبل رغم بُعد المسافات، و عندما وجد كل منا الروح التي استأنسها في عالم الغيب أبى الفراق، و تمسك بالأخر، كانت عينه تخبرني بذلك الشعور الذي سرى في قلبه حين أبصرني، و كنت مثله أقف أمامه أقر في نفسي بالذي قد كان مني من حب.

أكتفينا بنظرة الحب تلك و لم يخبر أحدنا الآخر بشعوره، بل أكتفينا بإن نلتمسه من الأحاديث القليلة التي دارت بيننا، فعاد لبلاده و انشغلت بمرضك وخوفي عليكِ، كنت أخشى أن أفقدك فلا يبقي لي أحد يا أختاه ألجأ إليه كلما ضاقت عليّ الحياة، و في أحدى زيارتي إليكِ بالمستشفى سألتك عن أيامك هناك، فهل تعودي عليها؟ أم تعانين الوحدة والمرض، و كان جوابك :
لقد تعودت المكوث هنا بعد أن طال.

فجلست عند أطراف فراشك بعد أن غيرتي حديثك كي تُخفي الدموع التي كادت تتساقط من عينيكي، ثم وجهتي سؤالك:
كيف حاله؟

من؟! و لم يكن بسؤال بل تهرب، ولم يكن لي جواب سوى قولي :
لا أعلم عنه سوى ما يعلمه الجميع.

وتركتك وذهبت، وفي طريقي سمعت صوته يناديني، التفتت إليه وأنا أدعو الله أن يصدق ظني، وقد صدق، فتظاهرت بجهلي، وسألته:
ماذا حدث لك، وكيف جئت إلى هنا؟

ولم أستمع لما كان يقول، فأنا على علم بالحادث الذي تعرض له في بلاده وأجبره المجيء إلي هنا كي يتلقى الرعاية الصحية.

تبسم بسمة حانية وقال لي:
إنكِ مثل نسمات الصيف تحضر للحظات لتأسر قلوبنا ثم تغيب.

أنا لازلت هنا، وحينما تود رؤيتي ستجدني.

في أي وقت؟

في أي وقت.

فزاد تعلقي به وتعلقه بي الذي لم يتجاوز أكثر من مجرد جبر خاطر مريضٍ في الظاهر، لكن الحقيقة لم تَكن كذلك، كان قلبي يحمل أكثر مما هو رفق بمريض، ولكن تلك المرة كان شعوري حقيقي ولم تخدعني نبضات قلبي.

وكان اليوم التالي أخر يوم له في المستشفى هذا، صمتنا فترة من الوقت بلغنا خلالها الممر الطويل في المستشفى، ذاك الذي طالما تعودت معكِ السير فيه، في نهايته كسرت الصمت وقلت له:
متى ستعود لبلادك؟

لا أدري متى، لكن أنا على أمل العودة قريبًا.

ثم توقف عن السير وقال بنبرة حانية رقيقة:
على أمل أن أعود وأنتِ معي.

وبعدها بأيام جدد طلبه بالزواج، وبعد طول جدال مع أبي تحقق ما تمنيته بفضلك، وبعد فترة كما تعلمي تزوجنا، عاد لبلاده وأنا معه، حاولت التَأَقْلم كثيرًا مع تلك الحياة الجديدة حتى تعودها وتخطيت حاجز الغربة بوجود مهدي وأخته نوار وأولادها، فكانوا يتجمعوا حولي ويطلبوا مني أن أقص لهم قصة عن الماضي، وأن نتحدث عن الحاضر، ونتخيل المستقبل، ذلك الذي قُتل، أما ما حدث بعد ذلك يصعب وصفه يا راحيل، واعذريني عن نبرة اليأس التي أتحدث بها الآن، أظن أنكِ علمتي ما حدث ببلد مهدي، لكن ما نقلته الصحف ووكالات الأنباء هو مجرد وصف غزو ودمار ألحق الأذى بمنشآت وخلف القتلى والمصابين، لكن لم يتحدث أحد عما أصاب النفوس التي أضحت تحيا جسدًا بلا روح، فقد تأصل الخراب بداخلي، وكيف لا يتأصل بعدما أبصرت ما أبصرت، يكفي رؤيتي لمن أحببتهم وتعلقت بهم يُقتلون أمام عيني وأنا عاجزة عن إنقاذهم، وصوت مهدي وهو يقول:
من مات دون وطنه فهو..

ولم يكملها، فلقد أبصرت نظراته تشرد ويده تنسحب من يدي، وارتفع صوتي بالصراخ كي يعلن الاحتجاج، لكن أين المجيب ونحن في مشهد يومٍ عظيم؟
أصبحت ضالّة النفس هائمة الروح، فالأيام لم تمهل مهدي ورحل تاركًا راكان صغيرًا لازال في حاجةٍ إليه، طافت بعقلي فكرة الهرب،
لكن إلي أين؟ ولِمَ؟
فحفظت العهد وأقسمت على البقاء، جلست راكعة باكية أمام فراشه، وقاسم بجانبه يرتل آيات الله ويجهش صوته بالبكاء من آنٍ لآخر، بينما مهدي ممدد على الفراش أناديه فلا يجيب، حتي تسلل ضوء الصباح لداخل البيت، فما كان علينا إلا أن نتجه للمقابر القديمة وسط المدينة حتى نواري ذلك الجسد الثرى، حمله قاسم كما هو دون أن يُكفن ثم قال لي:

أننا لا نقوى على تدبير قوت يومنا، فما بالك بمعدات الدفن، حتى وأن توفرت لنا الأموال، فمن أين نأتي بها في ظل ذلك الحصار؟!، سنحمله كما هو ونحتسبه عند الله من الشهداء.

توجهنا نحو المقابر مع عشرات الأهالي الطامعين في دفن موتاهم، لكننا وفي كل مرة نعود خائبين دون أن ندفن أحد، مُحملين بأعداد أخرى من الموتى زادهم علينا العدو.

يأس الشيخ قاسم من دفنه في المقابر، فقرر دفنه بداخل حديقة المنزل، ولم يكن ذلك بهين عليَّ، أنا الذي تعود وجوده وصوته...

أكتب إليكِ تلك الرسالة وأنا جالسةً بالقرب من قبره، وبجانبي يجلس راكان، تكفي نظرته الحزينة على قبر أبيه لتروي مأساة ما حدث، هسه وأن استمرّ في الكتابة استمع إلى أصوات النحيب والصراخ، وعيني ترى أهالي الحي وهم يُحمِلون ما وصلت إليه أيديهم من أمتعة على السيارات، أما أيديهم فتحمل الرايات البيضاء متجهين بها نحو المَنْفَذ الجنوبي للمدينة، يفرون بأرواحهم من الفناء، ولكي أن تتخيلي ما أراه الآن أنا الذي ظللت لسنواتٍ كثيرة من عمري مرفهة تُزعجني أصوات مفرقعات أعياد الميلاد .

لازال قاسم يحاول أن يقنعني بالفرار لكني أتمسك بالبقاء، وأمام خوفي على راكان على ذلك القلب الصغير أن يقسو، طلبت من قاسم أن يأخذه إلى حيث السفارة المصرية ببغداد أن كانت تعمل حتى الآن، فلا علم لدي في عزلتي تلك بالأوضاع في بغداد، و إن كان... سأضع معه الأوراق الخاصة بنا مع عناوين أهلي بالقاهرة، أما أنا سأتجه إلى طريق الجهاد، أوصيكِ بأن تعتني براكان عندما يصل إليكِ، لأنه في ذلك الوقت سيصبح مثلك لطيم الأب والأم الذين ماتوا في نفس البقعة من الأرض، فذلك الخطاب لن يصل إليكِ إلا بموتي، حينها سيحمل قاسم راكان ومعه أوراقه وتلك الرسالة، و يتجه به إلى منفذ المدينة السري الذي عرفه من مهدى.

راحيل... صديقتي ... ما دامت كلماتي قد وصلت إليكِ فكوني على يقين إني قد فارقت الحياة .

عوض الغريب 2006

ماذا لو كنتِ بيننا الآن و تمكنتي من الإجابة على سؤالي هذا، عن الروح و سرها، عما نرى.. عن الكلمة التي ننطقها بأفواهنا، عن الأمنية التي تتحقق لترينا الجانب المظلم منها... عن أسرار الكون الهائمة..
اسمحي لي أن أقص عليكِ قصتي بصيغة الغائب؛ لأنني أحسب أن ما حدث رأته روحي الغائبة و لم يراه ذلك الجسد العاكف على كتابة قصته تلك.

فمع نسمات فجر يوم جمعة، الجو فيه خريفًا صحوًا، انتفض عيسى من فراشه على صوت أذان الفجر الصادر من المسجد القريب من بيته، مصحوبًا بصوت كلاب الحي التي استهلت صارخة. مسح على عينه بهدوء و هو مستقرًا في فراشه، و تابع ذلك بقوله:
سامحك الله يا شيخ، حتى الكلاب فزعت من صوتك...
فأين لي بنيزك؟!

نهض من فراشه بهدوء، تهيأ للصلاة، و اتجه إلى الدرج يهبطه بهدوء وقد غلبه النعاس، و عند وصوله الدرجة الأخيرة، توقف قليلًا بعد أن أستمع إلى صوت دقاتٍ على بابِ الشقة الواقعة في الدور الأرضي للبيت، أقترب من الباب مصغيًا بأهتمام، فتأكد له أن مصدر الصوت يأتي من الداخل.. لم يعبأ بذلك، و سار في امتداد الشارع الذي يقطنه، مختبئًا تحت الأشجار الكبيرة التي لازال الريح يهوي بأوراقها، أسرع مرحًا في خطواته، حتى بلغ باب المسجد .

بعد أن فرغ من أداء الصلاة، أسرع بالخروج منه، و توقف أمام بابه، يطيل النظر إلى داخله باحثًا عن المؤذن، كي يتوسله بالكف عن نداء الحق؛ لبشاعة صوته، بعد أن فزع منه كلاب الحي منذ قليل، ربما كان يقصد بذلك المزاح كما تعود منه المقربين طيلة سبعة عشرة عامًا مروا من عمره، و أثناء انتظاره أتي من خلفه صوتًا رخيم يقول :
ماذا تفعل هنا يا بني؟!

التفت بهدوء و نظر بعينٍ ثاقبة للمتحدث. رجل قصير القامة، أزرق العين، أصلع الرأس، يرتدي جلباب بني اللون، و حذاء قديم بالي، ممسكًا بعصا يدق بها الأرض من تحته، أخذ يتفحص ملامح وجهه و الخطوط الغائرة في خديه، ثم قال ببرود :
أقف على أملاك الدولة، فهل لديك ممانع؟!
لا، فلقد أبصرتك بالصلاة، و ها هي قد أنتهت، فعليك التوجه لبيتك في هذا الوقت الباكر.
قال عيسى هامسًا:
انتظر" فزاعة القبر "

أي" فزاعة"؟

ألتفت إليه، و وضع يده على كتفه، و هو يوجه وجهه لداخل المسجد، مشيرًا بيديه لرجلٍ يقف بالقرب من المنبر:
هذا.

ماذا فعل ؟

هذا الرجل هو أحد المؤذنين، لا ينادي إلا لصلاة الفجر، و والله لهو خير من كُلف لتلك المهمة، أجزم أن الكثير ينتفضوا من سباتهم و يحسبون أنهم في القبور، و ملائكة العذاب تجلس بجانبهم تحاسبهم على أعمالهم.

ألهذا السبب، تُسميه "فزاعة القبر"؟!

هز عيسى رأسه بالإثبات، و عرج إلى بيته يليه الدرويش، توقف عيسى و هو يقول :
تصاحبك السلام يا....

عوض... عوض الغريب.

تشرفنا.

و استدار عنه، يكمل طريقه لداخل البيت، ثم توقف عن السير و التفت مسرعًا :
عوض الغريب الذي كان يسكن تلك الشقة.

نعم

أين كنت يا رجل؟!
فلقد بحثنا عنك كثيرًا ولم نجدك.

دلف معه إلى داخل الشقة، و جلس عيسى بينما ظل عوض واقفًا، يطيل النظر إليه:
أخبرني، لِمَ لم تفزعك دقات الباب ؟ ألا تخاف الجن ؟!

راح عيسى يوضح له فلسفته في ذلك، ولِمَ لا تفزعه بعض القصص التي تصيب الآخرين بالتوتر والقلق، و ربما الخوف الشديد، فهو يرى أن الجن هم خلق الله، مثلهم مثله، وما يزيده عليهم هو أن الله فضل بني أدم عن سائر المخلوقات،
يرى أن الإنسان هو من يبادر بطرق بوابة هذا العالم المحجوب ، فيضطر هذا الخلق أن يرد الإزعاج المتكرر على بوابة عالمه بآخر ، و يبدأ في تخويف هؤلاء، حتى يبتعدوا عن بوابته، و يحيا حياته في هدوءٍ وسكينة، و ليس أكثر من ذلك.

وأن كان الأمر كذلك، و أنت واعي بما يحدث، فلِمَ طرقت بوابتي؟

تبسم عجبًا وقال :
أنت؟!

فلقد تمنيت منذ قليل نيزك يخلصك من صوت الشيخ المزعج، وها أنا جئت لأحقق أمنيتك .

أنتظر... لا تتعجل.. فالنيزك سيدمرنا أجمعين، وليس وحده، إياك أن تندفع وتفعل شيء... لا أريد سوى إنذار، عسى أن يعم الهدوء يومًا واحدًا هذا الكوكب؛ إذا علم الناس قرب نهايتهم.

حتى وأن كان الإنذار خدعة.

وأن كان.

أراك تُصدق حديثي دون جدال، فلِمَ أنت قانع بأنني جان؟

تفلسف قائلًا:
فيا حاج عوض اختفاءك لم يكن طبيعي، و ظهورك الليلة مصحوبًا بصوت الكلاب ليس طبيعي أيضًا، أتصدق أن الكلاب تخشى صوت المؤذن؟!
لا... فهو يؤذن منذ نعومة أظافري.
الأهم أنك تحقق لي أمنيتي، كنت جان، عفريت، أو حتى إبليس، لا يهم، و ما جئت أنت اليوم إلا لتحقق حاجةً في نفسك، و ما أنتفضت من فراشي إلا بعد نباح الكلاب، وهذا يدل على أنك لم تأتي لتحقيق أمنيتي التي طلبت بها بعد مجيئك، فصوت الكلاب دال على ظهورك، كما أخبرني جدي من قبل عنك، وعن علامات ظهورك .
عقد عيسى يده حول صدره وأكمل في تفاخر:
أصدقت الحديث أم لا؟
صدقت يا عيسى.
ثم أخذ يدور حوله في خيلاء و قال:
ألا تود أن ترى هذا النيزك، و ترصد خطوات سقوطه من السماء إلى الأرض.
قلت لك، أن أقصى ما أريده هو إرهاب هؤلاء ليومٍ واحد، لا أكثر و لا أقل.
هز عوض رأسه متفهمًا، و أضاف: متى تود ذلك؟
في أي وقت، حتى و إن بدأنا في التو.
و أن مستعد، لكن عليك القيام معي برحلةٍ بسيطة ندفع بها النيزك بالقرب من الأرض، لترصده محطات الفضاء، و تقم بنشر النبأ.
فيستعصى عليَّ أمر النشر.
أظن أنك تخدعني، فكيف يستعصى عليك أمر نشر النبأ، ولا يصعُب عليك النفاذ بين السماء والأرض لتزحزح نيزك عن موقعه.
بأي صفةٍ أخرج على الناس بنبأٍ مثل هذا، لابد من سمعاهم ذلك على لسان كيان موثوق به، لكن الزحزحة لا تهم، فلن يسأل أحد كيف حدثت، ثم أضاف بحماس :
هيا يا بطل؟!
فلا عليك أكثر من أن تُغمض عيناك، و تُصفي ذهنك، و تستأذن روحك بالسفر لثواني معدودة.
نفذ عيسى أمره و هو لازال جالسًا على مقعده، و أطلق زفرةً حارة قال بعدها: و ماذا بعد؟
تخيل أنك جالس بجانب نجم في السماء.
بهدوء: و بعد؟
أمره هامسًا: تأمل ولا تتكلم .
و انسحب من الأرض لعالمٍ آخر، ليس بعالم أنس ولا جان، فحلق كالطير في الملكوت، كأنه الطير في الجنان، وإذا به يحلق بين النجوم والكواكب الدرية، أبصرت عيناه عوض بحجم عقلة الأصبع أو ما هو أصغر منها، يقف غير بعيدٍ بين أطلالٍ رمادية، وأحجار ضخمة، بعضها يشع نورًا، و أخرى من شدة نورها تراها تتوهج نارًا، تشعر أن كل ما حولك يعزف مقطوعة قداس الموت لموزارت.

بينما ظل عوض جالسًا ينظر لأعلى كأنه يسترق السمع، تبدل الحال، و تعالت الأصوات من حوله، وأسرعت بالخلف من عوض قطعة حجر ضخمة تشع نورًا .

حتى حان هبوط عيسى إلى عالمه، ربما كان ذلك أيسر من الأرتقاء، فانتفض من جلسته مهمومًا تعسًا، غير قادر على تفسير الشعور بالحزن الذي أصابه تلك اللحظة، و أخذ يتلفت حوله، فلم يرى شيء، و عزم البحث في أركان الشقة عن عوض، لكن لا أثر له، كأنه لم يكن، وأن ما رأى منام، فاستسلم لتلك الفرضية و اتجه إلى شقته منسحبًا إلى فراشه حتى يحين موعد صلاة الجمعة، لكنه أستيقظ على صوت أمه القائلة :
أستيقظ يا حمزة، فلقد بلغنا الأجل .
ماذا ؟
أوشك العالم أن ينتهي.
تبسم ساخرًا وعاد يريح أطرافه على فراشه و هو يقول :
كفي عن المزاح الان. أرجوكِ . كفى ما رأيت .

أقول لك أن العالم سينتهي بعد قليل.

أنتفض فزعًا :

كيف ؟ و متى ؟ ومن أين لكِ بهذا النبأ؟!

أعلنت وكالات الأنباء عن رصدها نيزك ضخم يدور حول الأرض، و لا يفصل عن سقوطه سوى ساعات .

أسرع نحو شرفته يطل منها، حتى لاح له السواد من بعيد، المئات من الرجال يسيرون في الطرقات متشحين السواد، شديدِ بياض الشعر، يحملون نعشًا مغطى بقطعة حريرٍ خضراء، و قد علت أصواتهم مهللين، حتى عم السكون الطرقات، و كفوا عن السير، عدا رجلًا واحد تقدم هؤلاء، و صاح بصوتٍ عالي:
" أقترب الوعد، رباه أن كان قلبي زاهدًا ما سألتك عن شيء، و لا صرخت مناديًا، اللهم أغفر لنا ".

التفت لأمه مستفسرًا:
من هؤلاء ؟!

لكنه لم يجدها، فإذا بها قد افترشت سجادة الصلاة بالخلف من أبيه و أخيه، ظل يناديهم فلا أحد يجيب، أتجه إلى الطرقات يمشطها بحذر، فالطرقات فارغة، مع كل مسافة يقطعها، يشعر وكأنه مثل فتية الكهف، أستيقظ في زمنٍ ليس بزمانه، لا يعرف أين هو؟! و ماذا حدث؟!
و لازال يقطع الطرقات حتى بلغ بوابة مسجد "نفيسة العلم"، بمجرد أن وطأت أقدامه ساحته الداخلية، حتى رآه مكتظًا بالبشر، فحدث نفسه: ماذا حدث؟!

حاول التحدث مع الواقفين، لكن لا مجيب، كأنه ينادي في بيداءٍ مقفرة، فيأس من الإجابة، و أكمل السير في هذا الشارع متخطيًا العديد من المساجد المنتشرة التي لا يختلف حالها عن حال مسجد السيدة نفيسة، حتى أيقن أن مساجد القاهرة قد امتلأت، و تسأل :
وماذا عن كنائسها؟!
لم يختلف حالها هي الأخرى.

وأخذ كذلك سائرًا في الطرقات حتى أزفت الشمس على الرحيل، و هو يتسأل :
أين أذان هذا اليوم ؟ أين العالم ؟ و أين أنا ؟

عاد إلي أهله بعد ساعات من السير دون هدف، لكن حالهم لم يتبدل، فعندما يسكن الخوف القلب فلا مفر من الالتجاء إلى الله. لكن إذا كان الخوف من الله، فلا مفر من الله إلا لله.

حاول مشاهدة التلفاز، عسى يوافيه أحد بما يحدث، لكن البث قد توقف، و لا صوت يعلو فوق صوت دقات القلب، قال بصوتٍ مسموع و هو يجلس بالقرب من التلفاز :
هل للحاج عوض يد في ذلك ؟!
ثم تمتم قائلًا : النيزك ... عوض .... و لو ليومٍ واحد .
و أنتفض قائلًا:
يوم واحد، لا بد و أن عوض قد صدق وعده .
فخبط جبينه وهو يقول بعصبية :
ساذج أضعت متاع اليوم .

و أتجه من جديد إلى الطرقات قاصدًا المسجد مع اقتراب أذان العشاء، و كبقية المساجد وجده مكتظًا، فارتقى درجات المئذنة و بد له الكون قد أتشح السواد إلا من بصيص نور ينبع من نقطةٍ في السماء فأرتفع صوته بالأذان، و بعد أن انتهى، صاح مناديًا :
ماذا فعلت أخبرني ؟
و ظل ذلك الشعاع محلق في السماء. أخفض عيسى رأسه قليلًا حيث الطريق الفارغ، و قال :
أهذا ما كنت أريده، أكنت أود الهدوء؟
أم الفناء ؟

ومن بعد، جلس متربعًا أمام المسجد يتسأل:
ماذا حدث ؟
الكل متخبط، يحاول أن يقتطف الحسنات في اللحظة الأخيرة، فتذكروا الله.

أيمكن للحياة أن تفنى دون أي أنذار؟!
أين علامات القيامة ؟
أم أن ما أراه الآن علامة على قرب الفناء، ومن هو عوض ؟ ولِمَ ظهر لي في ذلك الوقت ؟

أنه جن يا ابني.

التفت عيسى لصاحب الصوت وقال :
من أنت ؟

تربع بجانبه وهو يقول : لا يهم المسمى، الأهم ما يندرج تحت هذا المسمى .

وماذا يندرج ؟ فهل أنت مثل عوض جن ؟، لذا تلفظت إجابة سؤالي دون تردد.

من السهل عليَّ أن أقول أني جن أو إنسان، ولن تشكك في قولي، حتى وأن أصابك الشك، لا يمكنك التحقق من هويتي، لكني سوف أجيبك عن ما ترى وما رأيت
فعوض يا بني كان يسترق السمع، ألا تتذكر قوله تعالى :
"وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا"

لكن الشهب لا تتساقط على الأرض.

فإذا تساقطت سُميت بنيازك .

قال وفي صوته رنة سعادة :
لن ينتهي العالم الآن ؟

إلا أن يشاء الله .

وأكمل معه السير في الطرقات الفارغة، يكملا حديثهما ويرقبان ما كان يحدث، فقال عيسى :
خُيل لي من قبل أنه إذا حدث مثل ذلك الأمر يومًا ما، فسأبصر الكثير، يحرقون أموالهم، وربما يهدمون منازلهم، سيدمرون كل ما حال بينهم وبين الله؛ كنوعٍ من الانتقام،
لكني لم أرى ذلك، فهم كما ترى منشغلين بالصلاة والذكر

ربما تشفع لهم .

لكنهم موهومين، خدعهم الغريب .

سيلقى مصيره لا تقلق .

وهؤلاء؟!
كيف لهم أن يدركوا أن ما يحدث خدعة، أو أمنية سعيت لتحقيقها بيد الغريب .

صحح قولك، فالغريب هو من أراد تحقيق حاجةً في نفسه، و يُحملك أنت وزره، لكن الله علام الغيوب ..

وبينما هما على ذلك الحال، حتى أبصر بهؤلاء الذين رأهم قد اتشحوا السواد في الصباح يتقدمون نحوه، و قد بدا الفزع على وجوههم، توقفوا بالقرب من عيسى وقال أحدهم : هذا من عجل بالفناء؟

صاح مدافعًا :

أنا لم أفعل شيء، وليس بيدي حيلة، ولا أملك إلا الرجا، عسى أن تعودوا لصوابكم وتعلموا أن الساعة بيدي الله، تأتي بغتة، ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بها .

أنت من جئت بالغريب.

لست أنا، فالغريب بداخلنا نحن، لن يظهر إلا بيومِ ظهور الفساد في البر والبحر، بأيدينا نحن خلائف الله في أرضه.

استّمر الحديث بين لجاجة وجدال، حتى وضعوا النعش أمامه وقال أحدهم : تفضل بالرقود فيه، فأنت أول المشيعين، كما أمرنا الغريب.

أعاد عيسى نظره للوراء حيث مأذنة المسجد وقال : اسمحوا لي أن أنادي الفجر، و من بعد ذلك ضعوني حيث شئتم، وأسرع يرتقي درجات المأذنة، وما أن بلغ آخر درجة، وجد ذلك الرجل إلى كان بجانبه مستقرٍ يهم بنداء الفجر، فقال :
أسمح لي أن اناديه ليومٍ واحد، أرجو أن يعم صوت الطمأنينة العالم.
أبى ذلك الرجل تنفيذ طَلبه، والتفت مكملًا ما قد بدأ، فدق عيسى على كتفه وقال متوسلًا:
أرجوك اسمح لي.
فالتفت إليه الرجل وإذا بعيسى يبصر عوض واقفًا بدلًا من الرجل.

أنتفض عيسى من فراشه هلي صوت منادي الفجر وهو يقول :
أستغفر الله.
أستغفر الله،
فلا زال صوت المؤذن، ولا زالت الحياة، الحمد لله.
فهذا منام قد طال.

قصد المسجد للصلاة، و من بعد انتظر المؤذن كي يخبره بوقع صوته في نفسه، فاتجه بخطواتٍ متثاقلة نحوه حيث يقف ، و دق على كتفه بهدوء وقال :
السلام عليك يا...
التفت إليه الرجل :
وعليك السلام يا عيسى، أنا الحاج عوض المؤذن، هل من شيء تريده؟!

وددت أن أكتب في نهاية قصتي "أخبريني عن حقيقة ما حدث"، لكن مجرد أمنية. رحمة الله عليكِ يا أستاذة راحيل.

أسير الوهم 2007

أستاذة راحيل...
ماذا لو كنتِ بيننا تلك الأيام، و مقالتك تُنشر كل أسبوع بالجريدة كي تدب الطمأنينة و الإيمان في قلبه ليوسف، ابني، وحيدي، ذلك الذي لم يحتمل مشقة الحياة، فألقى بنفسه في غيابة الحب... رحل في لحظةٍ كلمح البصر، لحظة حيرة و ضعف، و ربما كانت لحظة تكبر و غرور و أنانية، حين ظن أن الإجابة بيده، و أنه مالك الحياة، و بإستطاعته أن يتخلص من ذلك العذاب.

فكم تمنى وهو صغير أن يُصبح طبيبًا يخفف عن بني الإنسان أوجاعهم، وعندما تحقق له ذلك، وقف عاجزًا أمام إرادة الله، كم من مرةٍ وقف أمام المرآة ينظر إلى صورته فيها متعجبًا من هيئته، يدقق النظر في تفاصيل وجهه كأنه يشاهدها للمرة الأولى، وبعد أيامٍ وحده الله القادر على أن يمحو أثرها من عقله من شدة ما عاناه مع غربة النفس، طرق زائر مجهول بوابة خوفه، بات يخشى أن يغلق عينيه حتى لا يفاجئه الموت، وبدأ يفترش الخوف مضطجعًا يستقر عليه طيلة الليل، وفي أثناء نومه يفتح عينيه بين الحين والحين، يتساءل:

- أين أنا؟ كأن العالم أضحى غريبًا عنه. حاول مرارًا حين يباغته هذا الزائر أن يبث في قلبه الأمان ويبدأ البحث في كتاب الله عن آية تشعره بالأمان وتزيح عنه ذلك الهاجس، لكن كيف بعد أن تمكن الخوف منه!

فكم من مرةٍ عزم فيها على ترك دراسة الطب، دائمًا ما كانت توقظ الخوف بداخله. كان شاهدًا لمراتٍ عدة على الفراق، رأى أرواح تنزع من الأجساد، وأجساد تنفر الروح، وأخرى متأرجحة. تعايش مع كل منها مشاعر الخوف والدهشة وأحيانًا الفرح، عند من رفضوا الحياة وتعجلوا لرؤية الرحمن، مع كل روح تُدفن يشعر بأنه هو الذي وارى الثرى جسده وانتظر في وحشة القبر مصيره، يخوض معمعة الموت كأنه طرف فيها، ولم يجد في دراسة الطب ما يراه البعض من تفاخر وتباهٍ.

حاولت مرارًا أن ادفعه عن ذلك الظن، فقلت له ذات مرة :

قد تتبدل الحياة من حولك في لحظةٍ كلمح البصر، الصغير يكبر، والكبير يموت، وها نحن أسماء في قائمة ننتظر نداء أسمائنا للحياة، و سرعان ما ينادي الموت أسمائنا ، و بين الندائين تلك هي حياتنا التي تحتضن حسناتنا وذنوبنا فأما أن تُنفر تلك الذنوب قبل النداء الأخير أو تتمسك بها وتلقي بك في الهاوية، لكن أحيانًا هناك من يترقب النداء الأخير خائفًا من مصير مجهول، لا يستطيع أن يُحصي ذنوبه كي يُنفرها ولا حسناته كي يفرح بها؛ لأنه مستسلم لخوفه يحركه كيف يشاء، فكنت أنت من هؤلاء، شغلك الخوف من الموت عن الهدف الأساسي من الحياة.

كيف لي ذلك؟!، فالخوف أكبر من تلك الكلمات يا أمي.

يا بني، أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، و أعمل لأخرتك كأنك تموت غدًا.

ألا يكفي كوني طبيب أخفف أوجاع البشر؟!

و ماذا عن أوجاعك؟!، ماذا أن اخراك؟

أما عن أوجاعي فلم يعد لي طاقة بها، و أما الآخرة، فأنا أصلي و أعبد الله على قدر استطاعتي. اجتهدت كي أكون صالحًا.

و أين حسن الظن في أفعالك؟، كيف للصلاة و الصيام و الزكاة إلى آخر أركان الإسلام أن تكون بلا حب؟!، املأ قلبك بالحب، حينها ستزول تلك الغُصة.

و هل من أحدٍ قادر على أن يُساعدني في التخلص من ذلك الألم؟!

حينها تذكرتك، و قلت في قرارة نفسي ماذا لو كنتِ بيننا؟
لكن عدتُ أقول:
إن كتبك و مقالاتك لازالت موجودة، و بقدرتي أن اجلبها له، علها تخفف شدة ما يعانيه.

و قد كان، أحضرت الكتب و المقالات، واضعةً إياها على مكتبه، منتظرة قدومه، لكنه لم يأتي، طال غيابه عن البيت ذلك اليوم، حتى آت لي النبأ الذي أكد لي غيابه دائمًا..... قالوا لي أنه أصبح ثوبًا بالي عثروا عليه في مياه نهر النيل، تاركًا رسالة على ضفته، جاء فيها :

أمي، لا تحزني على فراقي، تلك هي الحياة، فهي لم تكن لي يومًا. منذ أن نضج عقلي فقدتُ متاع الحياة. حاولت الفترة الأخيرة أن أرفض واقعي. أن أهزم ذلك الخوف، لكنه بدا يتجسد لي بقوة هذا اليوم.

ففي الصباح، عندما وطأت أقدامي المستشفى، وصلني خبر المرض الذي أشتدت على صديقي عامر. أسرعت إليه في محاولة لإنعاش قلبه بتلك الصدمات الكهربائية، لكن لم أفلح و أنا أقلب النظر بين الشاشة و لوحة الشطرنج تلك التي تركناها ليلة الأمس على وعد منه أن نكمل ما قد بدأنا في الغد. و جاء الغد من دونه، رحل عامر.
أسرعت من المستشفى نحو النهر. أخشى أن أرى والديه. أرى ألم الفقد في عيونهم.. وقفت أمام النيل أودع صورته، و معها أودع تلك الحياة.

أكتب إليكِ بعد أن مزقني الخوف. مللت من الأنتظار و حسبت أنه قد حان لي التخلص من هذا الألم.
.
اللهم أغفر لي ... فلست بذلك السوء. لكني مريض أرهقني الخوف. أشهد بوحدانيته سبحانه، لكن أنا ضعيف .

رحل مثلما رحلتِ إنتي من قبل. حتى و أن كنتِ بيننا، فلن يهزم وجودك قدره. و كان هذا قدره.

الطريق إلى الملكوت 2008

لقد جاء اليوم الذي وجدتُ نفسي فيه كالوليد الذي يصرخ من الخوف والتعجب والحيرة، ذلك الذي لم يألف الحياة بعد، ويتأمل كل ما فيها كأنه يشاهدها للمرة الأولى، و لِمَ كأنه؟!
بل هي حقًا المرة الأولى التي أرى فيها الحياة بعد أن فقدتُ الأمل في رؤيتها، وأكتفيت بسماع صوتها..

منذ صغري والفضول يقودني للتعرف على الحياة، بدأت أستكشفها في وقت مبكر في محاولة فاشلة في تشريح الضفادع، التي سرعان ما تموت حينما أبدا تجاربي، حتى رأتني أمي في يومٍ من الأيام وأنا ألتقطها بالقرب من ترعة قريتنا، فنهرتني بشدة، و ظنت أن قلبي قد بدى قاسيًا... ظلت تنعتني دائمًا بالمجرم الصغير بعد أن حالت بيني وبين تجاربي الساذجة تلك ، كنت حينها في العاشرة من عمري، فأجبرني أبي علي العودة إلى (الكُتاب) الذي هربت منه من قبل، حتى يهذب الشيخ سلوكي ويدفعني لطريق الإيمان، لكنه لم يكن يدرك أنني كرهت كل من فيه، بداية من الشيخ و نهاية بالحصير الذي كنت أجلس عليه.

فما المنتظر من شخص كاره لتلك الحياة التي تحول بينه و بين ما يحب سوى الهرب، لكن لم أستطع في هذا السن الصغير و فشلت كل محاولاتي. قررت الصبر علي تلك الحياة، حتى أتحين الفرصة، و في الثامنة عشر من عمري، تسللت إلى خارج القرية ليلًا ، سارقًا بعض الأموال من دار شيخها، بعد أن سرقها هو من قبل بفتوى أحل فيها الإتجار في الآثار.

توجهت إلى الأقصر وأستأجرت مسكن صغير بتلك الأموال، وبدأت هناك الطريق المظلم الذي تخطفت فيه كل ما وجده أمامي معتمدًا على عقلي الذي سخروا منه من قبل.

عاصي، سارق، قاتل، قل ما شئت، فلقد أخترت الظلام عن النور، البعد عن القرب، الحيرة عن الهدايا، لِمَ لا؟!، وكل شيء مُتاح أمامي، لدي القوة التي يمكنني بها جمع المال، ذلك الذي تصارع عليه الكثير و لازالوا يتصارعون عليه، و لأنني واقعي أكثر منهم، فطلبته وحده، ولم أطمع في غيره، لذا فوجده أمامي كأنه يقول لي (خذني فأنا ملكك) ، أتساءل إذا ما أخذته، فماذا أفعل به؟! ، فلم يكن بإمكاني التمتع به؛ لأنني في كل لحظة أخشى من أن يعترف بجرمي وسرقتي. كد أظن أنه سينطق ويقول (هذا سرقني) ، لذلك أخفيته، و لم أستطع أنا التخفي بعدما وقعت في الخطأ الذي وقعت فيه الإنسانية منذ اللحظات الأولى، فقتلت كي أحمي حريتي، لأجد نفسي بعدها مسجون، غير قادرٍ علي فعل شيء سوي الندم، ندمي على وجودي في ذلك السجن بعد أن هربت من قريتي من قبل خوفًا من سجن أبي.

بعد بضعة سنوات، تدهورت صحتي ومعها أخذت حريتي، لكن أي حرية تلك بعد أن تمكن من جسدي المرض، بل أضحيت سجين ليالي المستشفي ، ففي السجن كنت أنتظر في كل لحظة الحرية، لكن في المستشفى أنتظر الموت، كل يوم يمر يُنقص من عمري ويقربني لقبر موحش، وكأن حياتي تأبى أن أكون إلا سجين.

في إحدى الليالي كنت جالس وحيدًا في الغرفة الخاصة بي في المستشفى ، بعد أن ذهبت الممرضة، فأنقطعت الكهرباء فجاءة وسمعت صوت ينادي بأسمي، أغمض عيني خوفًا لتزداد الظلمة ظلمة، و الصوت يدنو مني ويهمس في أذني. تملكني الخوف حتي أصبحت أسيره. بعد لحظات مرت ثقال، فتحت عيني بثقل كي أري نور المصباح بعد أن تلاشى صوت الهمس ، فبدأت في التحرك نحو الشرفة كي أستنشق الهوء، و أنا في الطريق نحوه أنقطعت الكهرباء مجددًا. توقفت في منتصف الطريق غير قادرٍ علي العودة إلى الفراش أو التوجه نحو الشرفة. دنى مني ذلك الصوت مرة أخرى و هو أكثر وضوحًا.

يردد قائلًا" بعد يوم أو يومين ستُصبح كالوليد الذي يصرخ من الخوف والتعجب ذلك الذي لم يألف الحياة بعد".

من أنت؟
عاد الهمس مرة أخرى، وقال :
أنا أنت

ومن أنا؟
لم يجب، فكررت النداء مرة أخرى بصوتٍ أعلى
من أنا؟

أنت الذليل.

لمن؟!

لمدامعك، التي تبوح بالسر.

أي سر؟

أختفى الصوت، و حقت كلماته حين عاد لي عقلي. أسترجعت ما رأيت. فكيف لي أن أرى وقد ذهب الله بنور عيني منذ سنوات. بكيت وصرخت وظننت أنني فقدت عقلي ذلك اليوم... مثلما ذهب الله ببصري من قبل، وأن بالغد لاينتظرني سوى الموت. تملكني الخوف لأيام كنت فيها جسد بلاروح، عينًا باكية وقلب خاشع، فلقد عظمت ذنوبي، وكان لابد من الصفعة التي تُنقي قلبي من كل ذلك. أخذ لساني يردد كلماتٍ غير مرتبة حزينة أتوسل بها إليه في خشوع وأَنا عند ظني فيه.. كنت أردد :
يارب لقد ضاقت الأرض ولم يضيق صدري برحمتك وعطفك ومددك ، ما زلت أنتظر جودك حتى آخر لحظةٍ فى حياتى ،فأنا على ثقة بأنك سوف تستجيب، فأنا أقوى بك ، أستطيع تحمل كل شيء حتى وأن كان الموت فى تلك الحياة ، قادر على الشقاء والتعب طوال حياتى، لكننى لا أستطيع إكمال تلك المسيرة دون وجودك بجانبي، دون أن يصبح أسمك شفاءً لقلبى، و أن يكون لقائك أمل لى فى الخلاص. فعندما ترفع عنى أحد أنوارك، سوف أنسى الدنيا جميعها بهمومها وذنوبها وقسوتها وأحيا لتلك اللحظة التى يراك فيها القلب ، فيارب فرجٌ قريب يتزايد فيه الشكر والحمد..

عدت إلى قريتي وأصبحت فى إشراقة كل صباح تقودني قدمي إلى مقابرها أقص لأبي وأمي ما حدث خلال السنوات الماضية، ولا أستطيع إلقاء اللوم عليهما؛ لأن وزري أكبر من وزرهما، بعدها أسير في المقابر ملقي السلام على من دُفن فيها لعلهم يستمعون لي، تتدافع الأفكار نحوي وأخبر نفسي بأن ما أفعله من زيارة هؤلاء الأموات، إحسان، ؛ لذا سيأتى من يؤنس وحشتي في يوم من الأيام مثلما أفعل مع هؤلاء الأموات ، الزائرين لي كل منام، ينظرون نظرة أمتنان كأنها جزاء الإحسان.

المعجزة.
٢٠٠٩م

أحسب أنكِ إذا كنتِ على قيد الحياة الآن، بإمكانك أن تمنحيني الأمل و الرضا، ربما تضعي عقلي الحائر على طريق الهدايا... لكن كما تقُولين دائمًا:
اللهم اهدني إليك حتى اهتدي... و ماذا تعني الهدى بالنسبة لشخصٍ مثلي؟! و لِمَ اطلبها؟!

_ فلطالما في صغري طال بي الحنين إلى الله، بدأت اتلفت حولي باحثًا عنه و لم أتجاوز حينها الرابعة من عمري، صادف حينها سماعي لقصة عصا موسى، فاتجهت إلى بيتنا، و امسكت بعصا، ألقيت بها على الأرض، منتظر بين خوفٍ وشوق، أن تتحول العصا إلى ثعبان، لكنها لم تتحرك، و كررت المحاولة عدة مرات، بينما النتيجة واحدة، خيبة أمل طفل تذمر بعدها، و حسب أن الله

لا يحبه، و أسرعت لفناء البيت و معي قطعة زجاج حاولت بها إنهاء حياتي التي لم تبدأ بعد، فجرحت إصبعي، و فشلت في الانتحار، اتجهت إلى أمي اخبطت على كتفها و أقول بصوتٍ ضعيف يتخلله الحزن :
_جُرح أصبعي.

لكنها لم تلتفت لي، وظلت تستمع إلى ما كانت ترويه لها جارتنا، لم أكن أدرك في هذا السن الصغير قول الحاجة سامية، لكن مع مرور السنوات، بدأت أتفهم ما كانت تقول،
أخبرت أمي ذات مساء كما اعتادت أن تلتقي بها كل أحد، عن قصة الرجال الثلاث الذين تحدوا القرآن، و وضعوه أسفل أقدامهم و كيف جاء عقاب الله، فقال لهم :
_ كونوا قردةً خاسئين.

فقالت لها أمي:
_هل رأيتي ما حدث؟

* لا، بل استمعت إليه مثل غيري.

استمعوا ولم يروا، تناقلوا قصصًا غريبة عجيبة، لا يلجأ إليها إلا دين ضعيف، يسعى أصحابه لتأكيد ذلك المعتقد، و بات حديثهم بعيدًا عن المنطق و العقل، كنت حينها أدرج من العاشرة إلى الحادية عشرة، اجلس مع أمي و هي تستمع إلى تلك القصص الخرافية ، فيبدأ عقلي في تفنيد ما أسمع، و مع مرور الأيام ، تجلى شغفي بالقراءة. زاد ذلك الشغف يومًا بعد يوم. غرقت في مكتبة الحي، اقرأ عن فولتير ، وجاليليو، و كبلر، كوبرنيكوس، و غيرهم، و بدأ عقلي ينمو أكثر وأكثر، كنت مغرمًا به، و وجهت العديد من التساؤلات، و قلت :
_أن كان لا بد لكل مخلوق من خالق، فمن خلق الخالق؟!

فرأيت الوجوه تصفر من حولي، وتعالت الأصوات محذرة،
والآخرين رفعوا أيديهم للسماء يدعون الله لي، عسى أن اهتدي، لكن لا أحد منهم حاول أن يحاور عقلي، لعل أحدهم كانت لديه إجابة تشد غريق النفس من بحر الظلمات، وبدأ عقلي يتلفت وراء المناقشات الفلسفية، يحلل وينقد، وأحيانًا ينقض بعض ما يراه البعض أفكارًا راسخة، فخلقتُ بفصاحة لساني حالة من الشك لدى البعض.

و مع مرور الوقت ، اتضح لي ما كان غائبًا عني يومًا ما، فكيف لي أن أعترف بالخالق، ثم أجعل منه مخلوقًا بعد ذلك، فذلك في ذاته أعترافًا بوجوده، إقرارًا بوجود وهم وضعه البعض حتى يحتموا على الآخرين الخوف والرهبة، و لا يتناحر الجميع يومًا ما، وتصبح الدنيا ساحة صراع، ولأن عقلي توصل إلى تلك الحقيقة، فلا حاجة لي بهذا الدين، ولا الإستماع إلى تلك الخرافات و المعجزات التي يُبنى عليها.

كانت أمي تغضب كلما رأتني أنكر تلك الخرافات، بداية من عصا موسى نهايةً بآخر قصة استمعت إليها من جارتنا.

لكني معذور، خُلقت في زمن ارتدى فيه الباطل ثوب الحق، و ارتفع صوت العقل لجاجةً و غرورًا، و تقدم بي العمر حتى وصلت مشارف الثلاثون من عمري، ضاع أغلبهم في البحث والتدقيق، وما وجدت نفسي إلا أستاذًا للفلسفة بالجامعة التي درست فيها من قبل، اتذكر ذلك اليوم الذي وصلني فيه نبأ تعييني، فهتفت أمي برنة سعادة :
_ حمدًا لك يا رب، لم يكن ليتحقق ذلك إلا بأمرك، فتلك معجزة، حتمًا معجزة حولت ذلك الطفل قليل العقل والحيلة إلى أستاذٍ.

فنظرت إليها متعجبًا وقلت :
*وأين مجهودي؟! ، فأنتِ لم تنسبي لعقلي و لمجهودي الفضل فيما أنا عليه.

حدقت النظر في وجهي، و قالت بصوتٍ مبحوح:
_وأين الله من قولك؟!

حقًا أين هو؟! وكان أول سؤال وجهته لطلابي، فقلت :
*الكتكوت أم البيضة.
أي منهما سبق غيره؟

كنت على ثقةٍ بأن الإجابات ستظل تدور في دائرة مغلقة، مظلمة، فعندما يجيب أحد قائلًا :
_الدجاجة.

متسائلًا:
* و مِنْ أين جاءت الدجاجة؟

_مِنْ البيضة.

*و مِنْ آت بالبيضة؟

ليعم السكون القاعة و لا ينطق أحد، بل يكتفون بالإلتفات إلى بعضهم، ينظرون في دهشة، و لا مجيب لأفكاري كما تعودت.

وفي إحدى المحاضرات، شق ذلك الصمت المعتاد صوتٍ يقول :
و مِنْ وضع تلك القاعدة التي تحتم خروج الدجاجة من البيضة و العكس ؟!
إذا استطعت أن تجيب على هذا السؤال، ستجد موضع النور في قلبك.

طال نظري لذلك الشاب ، و قلت وأنا اتكأ على كل حرف:
*العقل البشري الذي رأى تلك الحقيقة منذ أن خُلِق.

و مِنْ خلق هذا العقل البشري؟

*الصدفة.

و مِنْ خلق الصدفة؟، لابد من خالق.

اخدت نفسًا عميقًا بعد ما بدا لي أن ذلك الشاب أتاح لي لحظة إلقاء السؤال الذي طالما تمنيت سؤاله مباشرةً على طلابي، فقلت في ثقةٍ:
*و مَنْ خلق الخالق؟! أن كان لابد لكل صنعة من صانع فلا بد لكل مخلوق من خالق؟!

_و ما أدراك بأن الله مخلوق، فقانون الخلق وضعه الله، و مِنْ الجهل قبل الظلم، أن نطبق على الله سبحانه قانونًا وضعه هو.

بدأت انسحب قليلًا من تلك المناقشة، و قلت :
*لا أفهم حديثك، كفى علينا اليوم.

و شرعت في لملمت كتبي.

أصر الشاب أن يكمل ما بدأ و قال :
_استأذنك لحظة، فأنا أرغب في أن تجيبني على سؤالٍ ودت أن أجد له إجابة

*قل.

_هذه الكتب التي تحملها بين يديك، أنت من ألفتها من مجموعة كلمات و حروف ، حفظتها بين الغلاف، فهل يحق لتلك الكتب أن كانت تنطق، أن تتعجب من وجودك؟ ، تتعجب من كيان أخر يأكل ويشرب و يتحرك ، له قوانين مخالفة لقوانينها، فتحكم عليك ظلمًا أن تصبح مثلها و أنت خالقها.
لا، فأنت من وضعت تلك القوانين، و مِنْ الظلم أن تجعل منك تلك الكتب خالق لها، و أنت أقوى واقدر منها، ثم تقول لك:
كن مثلي مخلوق، فأنت من وضعت هذا القانون، ولا يحق خرقه.

أحدث قوله جُرحًا عميق في نفسي، فشعرت بأني على شفا حفرةٍ سأسقط بها لا محالة، و جاء المنقذ لي، تلك القصص و الخرافات التي استمعت لها في طفولتي و لم أجد من يُجبني عنها، فقلت في محاولةٍ أخيرة لمنع منطقي أن ينهار:
لكن هناك خرقٍ للقوانين منذ بدء الخليقة، أليست عصا موسى مخالفة لتلك القوانين، ألم تتحول إلى ثعبان بعد أن كانت جماد، أليس ذلك دليل على العشوائية، و قصص هؤلاء الذين تحولوا إلى قردة لأنهم تحدوا القرآن، و من قبلهم بني إسرائيل، وقصص من شفاءه الولي ذاك وهذا، و من رُزق بطفلٍ لأنه قرأ سورة مريم مثلًا
*أليست تلك هي الخراف بعينها؟

تبسم ساخرًا و هو يقول :
_عجبًا لك، تكذب وجود الخالق الله، بل تنكره، لكنك تستشهد ببعض ما ورد في كتابه سبحانه، لتكون لك حجة تكذب بها وجوده، أمن الأجدى أن تكذب كل ما هو متعلق به، و ليس هو فقط، لكنك لم تفعلها و لن تفعلها،
و ما حدث ليس بخرق لتلك القوانين، بل دليل على وجوده، فمن يستطيع خرقها إلا خالقها، و كان ذلك هو الدليل الوحيد على وجود الله، هو أن يرى البعض معجزات لا يفعلها إلا واحد، هو الله الأحد.

*و تلك الخرافات التي تحيط بالدين.

_أي دين يمر بمراحل عدة، منها تلك المرحلة، و هي الخرافة، من الممكن أن تكون فتنة يُفتن بها أصحاب الدين، ليعلم الله الذين آمنوا.

أسرعت من القاعة، أقطع الطريق إلى بوابة الجامعة في خطواتٍ وجلة، أسرع نحو أمي كي أسألها سؤالًا واحدةً، لِمَ لم تجيبي عقلي يوم أن جاء لكِ حائر متخبط، يوم ظن أنه عاجز؟!

فكان من الممكن أن تقولي له:
_أن معجزة العصا أختص الله بها عبده موسى ليؤكد بها حقيقة وجوده، و لم أكن أنا بحاجةٍ إليها.
لكنها لم تجب تلك المرة أيضًا، فما أن وصلت البيت، اتجهت نحو فراشها، فإذا بها قد استكانت به، لا تنطق و لا تتحرك، أصبحت ثوبًا، ركعت أمام فراشها وأنا أبكي بشدة و أقول :
أن كان قلبي زاهدًا ما سألت عن شيء، و لا صرخت مناديًا، لكني يأست من سنواتٍ غمرها الشك، فأين أنت؟ ولِمَ تتركني لتلك الإرادة الضعيفة؟
، تمنيت أن أكون صالحًا و لم أستطع ، لم أستطع يا الله، أنتظر دليل على صلاحي، يأست يا مولاي، فهل أنا على حق ؟،أم أنني لا زلت غارقًا في نهرٍ من الحيرة، أجبني يا الله.....
لِمَ تتركني لتلك الإرادة الضعيفة، فجعلت عقلي يتساءل متفلسفًا يكذب وجودك، جعلته يحاور وينقد وينقض، فأضحيت مغرم به.
لِمَ لم تخبرني يومًا أنك أنت من خلقت ذلك العقل؟!
أم أن ذلك اليوم قد أتى الآن.

رفعت عيناي الباكية نحو الفراش وإذا بي أبصر كتاب الله بجانب أمي، لتقع عيناي على قوله سبحانه :
وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا.
فقلتُ :
أهذه أيضًا معجزة؟!

حينما يتحرر العقل.
2010

أستاذة راحيل صادق، أرسل إليكِ قصتي للمرة الأولى، فلم أعهد من قبل إرسال مثل تلك الخطابات لكاتب ما، و الآن ارسلها لكِ بعدما رحلتي، اسمحي لي أن أحدثك و يكأنك بيننا و أقول :
سوف أبدأ قصتي بقولك في كتابك "الطريق إلى الملكوت":

هناك أحلام تمنينا حدوثها في حياتنا، و كلما تقدم بنا العمر أدركنا أنها ساذجات طفولة، و نضج عقلنا أكثر وأكثر ، و جعلنا عقلنا مركز أفعالنا. تُرى أن تحرر العقل من الجسد، هل تتحقق أحلامه المستحيلة؟ و إن تحققت، هل تتحقق دائمًا، أم لمرة واحدة يبرهن فيها العقل على تحرره.

هل ما كنت أتمناه حقيقة أرآها أمام عينى الآن؟!، فكم تمنيت أن أصبح وحيدًا في هذا العالم، و الآن تحقق ما سعيت له، امشط الطرقات بحذر؛ خشية أن أجد شخص ما، و تتحول الحقيقة لسراب، و يصبح كل ذلك مغامرة جديدة من مغامراتي، لكن لم تكن تلك هي مدينتي، و لم يكن ذلك العالم عالمي، و إن كان عالمى أو عالم آخر، لا يهم ، ما دمت الآن أقف وحيدًا.
هذا ما تصورته في بادئ الأمر، يا أستاذة راحيل.

بعد طول بحث تسرب الأمن إلى قلبى، و أخذتُ أسير حرًا في الطرقات ، و بينما أنا على ذلك الحال أنطلق من خلفي صوت أدمي يتحدث بلغةٍ غير مفهومة .
من أنت، و لِمَ تقف هنا؟!
ألتفتتُ إليه بحذر، و قلبي يخفق لعل يكون ذلك الصوت وهم، لكن كان حقيقة أرآها أمام عيني، وجد رجل عجوز يرتدي ملابس مناسبة للجدران و الزمان و أنا الغريب عنه.
أنطلق لساني بالرد على تسأله، و كأنني أحد سكان المدينة، و على علم بلغة أهلها :
أنا حابي.

لم يكن بإمكاني أخباره أسمي الحقيقى، حتى لا يتسرب الشك إليه، لكن العجيب الرجل لا يتعجب من هيئتي.

نظرت إلى ملابسي فوجدها متشابهة مع ما يرتديه ذلك العجوز، كنت أرتدي جونلة من الكتان تغطي ما بين الخصر و الركبتان، مثبتة بحزام، و في الأعلى كنت أرتدي طوق يغطي ما ظهر من جسدي ، فقادني الفضول للنظر إلى قدمي، و العجيب وجد نفسى أرتدي حذاء قديم مصنوع من ....لا لا ، لا يمكنني تحديد المادة المصنوع منها الآن، وعلى أى حال أدركت حينها أننى أنا الضيف فى ذلك المكان، وهو صاحبه

كان لابد من الإستسلام لذلك العجوز وتركه يوجهنى حيث شاء.
أنطلقت معه فى بقعة خالية من السكان، يتشبث بيدى ويسير فى هدوء، ولا أحد يظهر، أحتسبت أن حياتى ستكتمل هكذا، ونهايتى ستكون هنا وحدى معه، وبينما أنا على ذلك الحال وعلى نفس الحالة من الشرود.
العجوز أين ذهب ؟!
أنطلقت فى الطرقات باحثًا عنه، فأين ذهب؟ لا أدرى.
أركض يميناً ويسارًا، أصيح قائلاً:
أين أنت أيها العجوز ؟
لا أحد يُجيب.

و من حولى هناك بيوت قصيرة متراصة تتخللها الأشعة الذهبية ،منازل خاوية ،طرقات نظيفة ،بيوت مزخرفة . قادرة أن تنسيك ما كان من أمر العجوز.
وسط هذا وذاك داعبت أذنى أصوات روحانية كلماتها غير مفهومة للعقل لكن سرعان ما تمس القلب، أنجذبت نحو الصوت، عسى لي أن أجد ذلك العجوز من جديد، و أفهم منه سر ذلك المكان الغريب، وجد نفسى شاخص فى مكان مليء بالبشر، كأن الأرض أنشقت عنهم في لحظةٍ كلمح البصر ، يرتدون نفس الزى الكتاني، كحيلى العين الشاردة التى تنظر بعيدًا إلى نهر النيل، تغمغم شفاهم بكلماتٍ غريبة، ربما كانت هي مصدر الصوت الذي داعب أذني منذ قليل، فوجهت نظري إلى حيثما أستقرت عيونهم، فإذا بمنصة قليلة الإرتفاع، يتراص عليها رجال ونساء، يعزفون أجمل الألحان.

ظللت واقفًا أستمع إلى تلك الكلمات التي سلبت مني العقلَ، حتى تقدم نحوى العجوز من جديد، و تبسم بسمة حانية رقيقة تابعها :
أين كنت؟ فلقد بحثت عنك ولم أجدتك..

أنا من أفتقدتك أيها العجوز

أستند العجوز على يدي مجددًا وتساءل:
إلى متى ستظل تنعتني بالعجوز؟

حتي تخبرني بأسمك..

علت ضحكته و قال :
أسمي العجوز

اصطحبني حيثُ يُقيم كي أمكث معه تلك الليلة، و حين دنى الموت من القرص الدامي في الأفق.. حذرني أن أترك البيت حتى يأتي الصباح، و لكن كما يعلمني الجميع فأنا دائمًا ما أنتظر مثل تلك التحذيرات حتى أُخالفها، و ما كان مني إلا أن خالفت قوله..
أنتظرت حتى المساء و تظاهرت بالنوم، و عندما تأكد لي نومه ، تسللت خارج البيت خلف ذلك الصوت الذي بدأ في الظهور من جديد، تحركت مع هذه الأفواج السائرة، افكر في معنى ما يقوله هؤلاء حتى ضللت الطريق، و مثلما بحثت عن العجوز من قبل بدأت أبحث عن تلك الأفواج، ربما كانت تلك المهمة أيسر بكثير.

دنوت من بهوٍ عظيم تحفه أعمدة تشبه زهور اللوتس، علوه أبدي، تزينه النجوم المشعة و الكواكب الدرية، و في منتصف البهو ممر طويل تحفه التماثيل العظيمة، يُخيل لك أن هناك روح تسكنها، و من بعد وصلت لفناء صغير سمعت به صوت ضحكات أطفال بثت في قلبي الرعب للوهلة الأولى، عد بظهري للوراء خائفًا حتى وجدت نفسى فىةي فناء مغلق ليس به أي مصدر للضوء، وبدأت أتعودت الظلمة.. ميزت عيني ، كرسى عظيم، مرصع بالقوارير، عليه رجل حليق الرأس يرتدى رداء طويل، مصنوع من جلد الفهد، يلتفه حول جسده، و يعلق طرفه على كتفه، كحيل العينين، بد لي حين دنوت منه أنه العجوز، و عندما التقت عيني بعينه قال غاضبًا:
لِمَ خالفت أمري يا عامر ؟

تقدمت نحوه قائلًا :
من أين أتيت بأسمي؟!

مثلما أتيت أنت لعالمنا

لا علم لي كيف أتيت إلى هنا.

ستعلم حين تعود.....أتود العودة؟!

حدثت نفسي حينها برغبتي في الإستقرار هنا بضعة من الوقت، ربما سنح لي القدر فرصة التعرف على مصدر الصوت الذي أنشرح له صدري، لتكن أجابتي على العجوز بالنفي..

و لِمَ لا تريد العودة؟!

ظهرت الأصوات مجددًا كأنها تؤيد قراري، و قلت بغرور
:حتى أتعرف على سر هذه الأصوات..

لايمكن لك ذلك، فإذا اطلعت على السر، لا يمكنك أن تبرح ذلك المكان.

لِمَ؟!

لا يمكنني إبلاغك بشئ سوى ما تراه الآن، و أشار إلى حيوان يقف متأهب للفتك بي، و تلك هي المرة الأولى التي أري فيها مثل ذلك الحيوان الذي ربما كان مزيج من الكلاب و الذئاب، فتعالت الأصوات من حولى و تسارعت دقات قلبى، و أسرعت في الفرار ، و من العجيب أن كُتبت لى النجاة. أستقليت قارب صغير حتى وصلت الجهه الأخرى من اليابسة. أبصرت بوابة مغلقة ، تخطيت صور قصير بجانبها ، منقوش عليه صور لحيوانات، ربما كانت كتابة أهل البلاد .

في ساحة قصر كبير، مزخرف بأبدع النقوش و الألوان، نافورة ماء، تجلس حولها الفتيات، تتعالى أصواتهن بالضحكات.. أول ما وقع عليه نظري تلك إحدى الفتيات التي تحركت نحوى و قالت :
لِمَ جئت إلى هنا.

أخذت أقول وأنا ألتقط أنفاسي :
كنت أحاول الفرار.

مِنْ مَنْ ؟!

لا عليكِ، أنها قصة طويلة.

تابعتنى فى السير و قالت :
هل تعلم أنك الوحيد الذي وطأت أقدامه تلك الأرض غيرنا؟!

ومن أنتن؟!

حراس بوابة الحياة.

بوابة الحياة؟!

نعم، بوابة الحياة، و من الغريب أنك أول شخص يعود للبوابة مرة أخرى، فمن يخرج منها إلى الضفة الأخرى لا يعود، يذهبون إليها سكارى أو أشبه بالمجاذيب....

في شرود:
أنا لا أعلم كيف جئت إلى هنا. لكن العجوز أخبرني بأنني ساعرف كل شئ حين العودة، و عندما سنحت لي فرصة العودة، تركت لفضولي الإجابة، و الآن أريد العودة.

قالت في غرور :
بإمكاني ذلك.

أشارت إلى بعيد، لغرفةٍ فى منتصف الفضاء، مزخرفة بأزهى النقوش و الألوان، و تابعت:
هيا توجه إلى تلك الغرفة، فهناك سوف تجد عالمك..

أسرعت نحو الغرفة، و هى تتبعني ، دفعتُ الباب و وقفتُ في منتصف الغرفة، مغمض العين، رافع الأيدي والرأس، أصيح في سعادة وأقول :
الآن سوف أعود.
أخترق صياحي صوت الفتاة تتحدث من وراء الحائط وتقول : ساذج موهوم، واجه الآن مصيرك المحتوم.

فتحتُ عين بثقل فوجد أمامى نفس الحيوان، يقف متأهب للفتك بي.

فجأة!، وجدتُ نفسى جالس فى بيتي وأمامي العدد الثالث من الرسائل التي باتت تُرسل إليكِ. اقرأ قصة الجيوشي، و ربما كان هو ذلك العجوز، أمر مدهش، لا أدري إن كان ذلك منام حقًا أم أن روحي نفرت من جسدى لبعض الوقت، أم أنها مجرد هواجس، أو ما هو أخطر إذا كانت روح شيطانية تحاول خداعي.

لم أبحث كثيرًا عن السبب وراء ذلك، فأنا أمتلك قدرة هائلة. يُمكنني الإنتقال فى أي مكان، و في أي وقت، مثلما كنت أتمنى وأنا صغير ،جلست أبحث عن معلومات حول ذلك المكان، و أتضح لي أنه ربما معبد ما في أقصى البلاد، فكان لا بد لي أن أتحقق من ذلك في رحلة شيقة تختلف عن رحلاتي السابقة فما سبق لي من رحلات، كنت أكتشف من خلالها الأماكن، لكن تلك الرحلة اخوضها للتأكد من ما رأيته في منامي.

وجدتُ ذلك المكان مثلما رأيته في تلك الغفوة، و العجيب أنه بين الحين والحين يظهر لي ذلك العجوز بين تلك الأعمدة يبتسم ثم يغيب، فزاد الشك في قلبي وظننت أنه قد ذهب عقلي، فبحثت عن أحد من أهل البلاد ،كي أسأل عن شخص يحمل مثل تلك الملامح، تبسم أحد السكان و هو يخبرني بأن ذلك الوصف موجود لشخص عجوز يعرفه الكثير منذ سنين.. يسكن في غرب سهيل. ربما كان الجيوشي.

أمر داعي للقلق، فمن الممكن مصادفتي لصور المعبد في أي كتاب، لكن ملامح العجوز أين رأيتها حتى تظل راسخة في عقلي هكذا؟!

أرجو أن تفسري لي ما رأيت. كم حاولت أن أغفو لأسبح في هذا العالم، و لم أستطع حتى الآن.
أخبريني عن السبب وراء هذا، و كيف لي أن أعود مجددًا لذلك العالم؟ ، و ماذا من أمر العجوز أو الجيوشي؟.
فلم اتجرأ على أخطو نحو بيته، فلن أتحمل رؤيته.

شمس غاربة
2012

أستاذة راحيل، كم تمنيت أن التقي بكِ من قبل، لكن لم أستطع، أخبروني أنكِ قد رحلتي مذ كنتُ طفلًا، و علمت أن رسائلك تُنشر في هذا العدد من جريدة القارئ، كما خصصه لرسائلك الدكتور صالح،
ارسل إليكِ السلام من أهل الأرض لكِ في السماء، و أقول، أن كلماتك لا زالت تُقرأ حتى الآن. أتذكر كلماتك الرقيقة حين كتبتي : عندما تغيب شمس الحياة عن الوجود، لا بد أن تعود و تولد من جديد، و إذا ما ذهب الربيع، فسيأتي في وقتٍ قريب، لكن حينما تغيب شمس الجسد، و يذهب ربيع العمر، فإلى متى بعثهم؟

مع بداية يوم جديد، داعبت شمس الحياة شُرفة غُرفة الطفل حميد، و تتابع الطير يطرق الشرفة، كي يوقظه من نومه طالبًا الحب الذى يمنحه إياه كل صباح.

أقبل الطفل الذى لم يتجاوز السابعة من عمره على الشرفة، واضع الحب للطيور وأنطلق إلى طرقات مدينته حرًا طليقًا، ينطلق معه الكون مرحًا وسعادة، يتغنى الطير بأجمل الألحان؛ لأنه بالغد سيُضاف عام جديد لعمر ذلك الطفل، يظن أن كل شيءٍ حوله في الطبيعة يرقص فرحًا بجانب قلبه الصغير.

لا يعبأ بأمه التى تنادي بحثًا عنه، تسأل الجيران والأصدقاء، والجميع يخبرها بأنه كان يطير مثل العصافير في الطرقات، يختطف الورود من بائعها، والخبز من المخابز، ويطرق أبواب المنازل، ليركض الجميع من خلفه محاولين الإلحاق به، متعجبين من طفل في مثل عمره مليء بكل تلك الحيوية، لا يكل ولا يمل، يهدُف بذلك خلق جو من البهجة في الحي، وهو مازال يترنح في الطرقات يحتفل مع الطبيعة بذلك العام الجديد الذي أُضيف في حياته، أستمع إلى صوت أبيه ينادي للصلاة من المسجد القريب، فأسرع نحو المسجد مزاحمًا للمصلين، واقفًا بين الرجال في الصف الأولى ، يُحاكي المصلين فيما يفعلوا ويتعالى صوته بالتكبير بطريقة طفولية، يتطاير فيها حرف الراء، وعندما أنتهت الصلاة فر إلى خارج المسجد حتى لا يستطيع أبيه الإمساك به أو أحد من أصدقاء أبيه، وكذلك فعل في صلاة العصر .

وظل كذلك هاربًا من حارة لأخرى هائم كالطير في الجنان، حتى ودعت الشمس الطرقات وأستمع إلى أذان المغرب، فأسرع نحو المسجد وفعل مثلما فعل في كل صلاة، لكن في تلك اللحظة لم يفر هاربًا بل أنتظر أبيه حتى ألتفت إليه ، ليرد أبيه ابتسامته بأخرى ، ويقبض على يده الصغيرة ويعتزم الذهاب للبيت.

كنت أنا ذلك الطفل الذى أطلق عليه جيرانه اسم "فرحان" ، أركض في طرقات مدينتي مسارعًا لخُطى أبى ألتفتت إليه ضاحكًا بين الحين والآخر، لكن حينما اقتربت من المنزل أبطأت في السير وتشبثت به، طالبًا الحماية من غضب أمي، أخشى غضبها عندما

تجدني أمام باب البيت مبتسمًا بعد أن هلكت في البحث عني ، فلم يكن بإمكاني إخفاء البسمة فكانت كالوشم على وجهي، لكن العجيب البيت صامت تمامًا، تجلس أمي على الأريكة تحدق نظرها نحو شخص يتحدث بلغةٍ غير مفهومة في التلفاز، أسرع نحوها أبي محدقًا النظر هو الأخر ، وتوجهت أنا مسرعًا نحو الطعام الممدود الذى امتنعا عنه أبي وأمي ، وجلست لتناوله وأنا أنظر إليهما، تُرى ماذا حدث؟ ، أنصت إلى الحوار الذى دار بينهما فلقد كانت أمي تقول:
هل سينتهي الأمر هكذا؟
أجاب أبي في شرود وقال:
أظن أنها بداية النهاية

بداية النهاية؟!!! ، لم أتفهم تلك الكلمات في ذلك الوقت ، وتركتهما وذهبت إلى غرفتي و جمعت الحب للطير ، ورتبت ملابس عيدي، وزينت شرفتي كي أحتفل أنا والطبيعة سويًا في تلك الأيام ، وخلد إلى النوم مبتهج القلب صافي العقل ، لا أعلم ما يُخفيه القدر..

ومع فجر عيدي، استيقظت على أصوات الجحيم، الصراخ يجوب الحي وأمي تحملني بين ثناياها، أستمع إلى دقات قلبها المتسارعة، تحاول التخفي في أي مكان في المنزل وأصوات الجحيم تهز قلوبنا بين الحين والحين، لكنني استمعت لصوت أبي يخترقها بنداء الحق من المسجد القريب، ويتمم الأذان بالدعاء والشهادة، يطلب من الناس الثبات، ويحذرهم من القصف، لقد كانت الليلة طويلة مليئة بالخوف، وجاءت صبيحتها وأنا جالس في أحضان أمي، وعندما رأيت نور الصباح أنتفضتُ من بين أذرعها المرتعشة، مسرعًا نحو غرفتي كي أرى العصافير ، لكن لم أراها، لم أكن أدري إلى أين ذهبت؟! ، فهل غضبت مني؟ ، أم خشيت من الأصوات فلاذت بالفرار؟! وأن كانت حقًا ذهبت، فإلى أين؟!

فكل شئ حولي ماهو إلا حطام يملئ الطرقات، يمحو أثر قدمي الصغيرة، التي يأست من أن تستقر بصماتها على تلك الأرض مجددًا، فبين عشية وضحها مات الأمل في قلبي بعد أن تحول إلى أسير ينتظر إشراقة شمس يوم جديد؛ كى تدب في قلبه الأمل والأمن بعد ليل طويل موحش، ومضت سنوات، أدركت خلالهم أن من يموت لن يعود للحياة مجددًا، وأن الطرقات التي كانت مغمورة بالأمان كنت أشيعها بالأمس القريب، و بدأت حياة جديدة في بلدٍ أخر أملًا في أن تمحي مياه نيلها ذكريات تلك الأيام المشئومة ، لكن حتى الآن لم يفارقني صوت أبي وهو ينادي للقاء الله، ولا أمي التي كانت تنادي بحثًا عني، لكن فارقني الأمل، أمل... أن يعود ربيع عمري حتي لو عاد ربيع الحياة، وأمل شروق شمس أبي وأمي بعد أن ماتا شهيدا هواها... ومازال الشوق يغمرني ويدفعني إلى العودة إلى تلك الطرقات، لكن لأن الخوف أكبر من الأماني اكتفيت الأحتفاظ بتلك الصورة القديمة الجميلة في عقلي؛ حتي لا تُقتل الذكريات مثلما قُتلت الأبدان.

"حِينَ التقيتُكَ".

بالأمس القريب، أُرسلت لي رسالة، يقول كاتبها في بدايتها :
أستاذة راحيل.
اتعلمين من أكون؟
ربما لا و لن تعلمي. فأنا حمزة، خالي هو قاسم الذي تحدثت عنه صديقتك حياة،

_لِمَاذَا اِلْتَقَيْنَا ؟!

قُلْتُ سَاخِرًا ، بَعْدَ أَنْ أَرَحْتُ ظَهْرِي عَلَى اَلْعُشْبِ اَلْمُفْتَرِشِ مِنْ تَحْتِي :
*اِلْتَقَيْنَا حَتَّى يُعْطِيَ كُلُّ مِنَّا اَلْآخَرَ مَا اِفْتَقَدَهُ .

تَمَدَّدَتْ بِجَانِبِي و تَسَاءَلَتْ فِي حَسْرَةٍ :
_ وَمَاذَا أَعْطَيْتُنِي أَنْتَ ؟!
وَأَكْمَلَتْ سَاخِرَةً :
_ بَلْ أَخَذتَ وَالِدِي، وَلَمْ يَعُدْ لِي أَحَد.

*بَلْ أَخَذَهُ اَلْقَدَرُ، ومَنَحْتُكِ طِفْلًا .

_ إن كَانَ اَلْقَدَرُ أَخَذَ أَبِي، فَأَيْضًا هُوَ مَنْ مَنَحَنَى اَلطِّفْل .
وَمَاذَا أَعْطَيْتُكَ أَنَا ؟!

*لَمْ تَمْنَحِينِي شَيْئًا ، كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَيَّ مِنْكِ عَدْوَى اَلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، لَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ ، فَلَمْ نَمْنَح بَعْضًا سِوَى اَلشَّقَاء . خُيِّلَ لِي ، مَاذَا لَوْ اِلْتَقَيْنَا فِي زَمَنٍ غَيْرِ هَذَا ؟ ، كَمَا تَسَاءَلتِ دَائِمًا فِي وَاقِعِي وَخَيَالِي ، رُبَّمَا فِي بَلَدٍ أُخْرَى ، فَهَلْ سَيَحُولُ بَيْنَ أَرْوَاحِنَا ذَلِكَ اَلْفَقْدِ وَالْحُزْنِ ؟ ، أَمْ إِنَّنَا سَنُصْبِحُ مُتَحَابِّينَ مِثْلَ قِصَصِ اَلْعَاشِقِينَ اَلْقُدَامَى ؟ ، أَمْ أَنَّ تِلْكَ اَلْقِصَصِ لَمْ تَدُمْ ؟!

_ لَمْ تَدُمْ بِالْفِعْلِ . . . بَلْ كَانَتْ أَشْبَهَ بِنَسَائِمِ صَيْفٍ عَابِرَةٍ ... فَإِذَا كَانَ اَلشَّقَاءُ قَدَرَنَا، فَلَا حَائِل بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، اِعْتَدَلَتْ فِي جَلْسَتِهَا وَأَكْمَلَتْ :
وَمَا مَصِيرُ ذَلِكَ اَلْجَنِين ؟!

*مَصِيرُهُ مَعَكِ مِنْ دُونِي ، لَمْ أَكُنْ أَتَمَنَّى أَنْ يُعْطِيَنِيَ اللَّه طِفْلًا ، فَلَسْتُ اَلْأَب اَلْمُنَاسِبِ لَهُ ، يَا لَيْتَهُ أَتَى قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبِي ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا نَتَمَنَاهُ حَتْمًا يَحْدُثُ .

قَالَتْ فِي هُدُوءٍ :
_ رُبَّمَا يُبَدِّلُكَ ذَلِكَ اَلطِّفْلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

*تَخَيَلِي مَعِي ، مَاذَا لَوْ كَانَ تَأْثِيرِي عَلَيْهِ أَقْوَى مِنْ تَأْثِيرِهِ ، فَأَجْنِي عَلَيْهِ ظُلْمًا أَنْ يُصْبِحَ قَاتِل ، لَا ، لَنْ أَفْعَلْهَا ، وَسَأَتْرُكُهُ لَكِ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكِ فِي تَفْسِيرِ سَبَبِ اِبْتِعَادِي عَنْهُ ، سَأَقُصُّ لَهُ كُل مَا حَدَثَ عَلَّهُ يَغْفر لِي ، اِحْفَظِي كَلِمَاتِي مَعَكِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْكِ مِنْ عَالَمِ اَلْغَيْبِ ، وَحِينَ يَشُبْ وَيَقْوَى ، سَيَقْرَأُ تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ .

وَكَتَبَ إِلَيْهِ قَائِلًا :
لَا تَظُنْ أَنَّنِي أَقْسُو عَلَيْكَ يَا بُنَي ، فَإِذَا مَا حَاوَلتُ كِتَابَةَ مَا حَدَثَ لِي طُوال اَلسَّنَوَاتِ اَلْمَاضِيَةِ ، سَأَحْتَاجُ لِمَدِينَةٍ مِنَ اَلْأَوْرَاقِ أَمَّا عَنْ اَلْحِبْرِ فَلَا أَحْتَاجُ ، سَأَكْتُبُهُ بِدِمَاءِ اَلضَّحَايَا ، وَهِيَ كَافِيَةٌ كَيْ أَقُصُ تَارِيخُ اَلْبَشَرِ مُنْذُ خَلْقِ أَبُونَا آدَمْ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا .

تَبْدَأُ قِصَّتِي فِي يَوْمِ خَمِيسْ ، اَلْجَوُّ فِيهِ خَرِيفًا صَحْوًا ، اِتَجَهْتُ إِلَى بَيْتِ أَحَدِ أَعْمَامِي ، بِحَي تِشْرِينَ بِمَدِينَةِ اَلرِّقَّةِ اَلَّتِي تَقَعُ ضِمْنَ مُحَافَظَةٍ يُطْلَقُ عَلَيْهَا نَفْسُ اَلْمُسَمَّى ، وَقَدْ أَزِفَتْ حِينَهَا اَلشَّمْسَ عَلَى اَلرَّحِيلِ، فَصَبَغَتْ مَا حَوْلَهَا ذَلِكَ اَلْيَوْمِ بِلَوْنٍ أَحْمَرَ دَامِي، غَطَّتْ حُمْرَتُهَا اَلْحَي، وَبَيْنَمَا أَسِير فِي اَلطَّرِيقِ ، اِلْتَفَتْ عَيْنِي بِعَيْنَاهَا ، تَوَقَفْتُ قَلِيلًا أَمَامَهَا وَكَأَنَّ اَلْعَالَمَ مِنْ حَوْلِنَا أَصْبَحَ بَاهِتًا لَا مَعْنًى لَهُ، اَرْتَبَكْتُ، وَرُبَّمَا أَحَسَّتْ بِارْتِبَاكِي، أَحْسَسْتُ بِأَنَّ اَلدَّمَ تَصَاعَدَ إِلَى وَجْهِي ، تَخَطَيْتُ نَحْوهَا خُطْوَةٌ ، فَعَادَتْ لِلْوَرَاءِ خُطُوَاتٍ ، وَانْحَرَفَتْ عَنْ طَرِيقِي وَأَنَا أَتَحَاشَى اَلِاصْطِدَامُ بِهَا، وَأَكْمَلَتْ هِيَ طَرِيقُهَا فِي خُطُوَاتٍ وَجِلَةٍ، فَاسْتَدَرتُ عَنْهَا مُكَمِّلاً طَرِيقِي، فَلَمْ أَسْتَطِعْ، وَالْتَفَتتُ إِلَيْهَا مُسْرِعًا تُلَاحِقُهَا عَيْنَايَ، حَتَّى غَابَتْ عَنْ نَاظِرِي بَيْنَ اَلزُّرُوعِ اَلْمُنْتَشِرَةِ فِي اَلطَّرِيقِ، وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ لِقَاءٍ بَيْنَنَا.

تَسَألتُ عَجَبًا:
* أَهَذَا هُوَ اَلْحُبُّ اَلَّذِي طَالَمَا سَمِعْتُ عَنْهُ ؟!
قَصَصْتُ ذَلِكَ لِأُمِّي، تَبَسَّمَتْ وَقَالَتْ:

_وَمَنْ قَالَ لَكَ أَنَّ تِلْكَ اَلْمَشَاعِرِ اَلنَّبِيلَةِ ذَنْب، لَكِنْ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعْطِيهَا مُسَمَّى سِوَى " اَلْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ " ، " وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً" .
فَالْمُسَمَّى لَا يَهُمُّ، اَلْأَهَمَّ مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذَا اَلْمُسَمَّى ، فَإِذَا كَانَتْ مَشَاعِر صَادِقَةٌ لَا تَجْعَلُ مِنْكَ عَابِدْ وَخَادِمٌ لِهَذَا مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ اَلْحُبُّ، فَأَنْتَ بِذَلِكَ حُرٌّ مِنْ قُيُودٍ قَدْ تَفْتِكُ بِكَ، وَتَجْعَلَكَ أَسِير لَهَا، وَلَا يُسْأَلُ اَلْأَسِيرُ عَنْ مَشَاعِرَ صَادِقَة.

وَلَمْ تُمَانِعْ قَدَمَايَ اَلسَّيْرَ نَحْوَ ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ اَلَّذِي اِلْتَقَيْنَا بِهِ مَرَّةً أُخْرَى، اَنْتَظِر فِي اَلْغُرُوبِ رُؤْيَتَهَا، فَجَلَسَتْ غَيْر بَعِيدٍ عِنْدَ حَافَةِ اَلْأَرْضِ اَلْخَضْرَاءِ، تِلْكَ اَلَّتِي غَابَتْ بَيْنَ أَشْجَارِهَا، وَطَالَ اِنْتِظَارِي لَهَا، حَتَّى بَدَا لِي طَيْفِهَا يَلُوحُ مِنْ بَعِيدٍ، وَبَاتَتْ تَخْتَفِي تَارَةً وَتَظْهَرُ تَارَةً بَيْنَ أَشْجَارِ اَلْيَاسَمِينِ، فَانْتَفَضْتُ مِنْ مَجْلِسِي وَاِنْتَظَرْتُ شُرُوقَهَا، وَأَشْرَقَتْ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوِي، و تَقَدَّمْتُ نَحْوَهَا، لَكِنَّهَا وَقَفَتْ عَلَى مَسَافَةٍ مِنِّي اَلْمُنْتَظِرُ عَلَى قَارِعَةِ اَلطَّرِيقِ، وَبَدَا قَلْبِي يَخْفِقُ لِلْمَرَّةِ اَلْأُولَى، وَبِبَسْمَةٍ مُتَّسِعَة قَالَتْ بِرِقَةٍ:
_لَاحَظْتُ اِنْتِظَارَكَ لِتَقَدُمِي نَحْوُكَ مُذْ كُنْتُ، وَاسْتَدَارَتْ بِخِفَّةٍ نَحْوَ اَلْأَرْضِ اَلْخَضْرَاءِ وَأَرْدَفَتْ:
_هُنَاكَ، عِنْدَ اَلْحَافَةِ اَلْأُخْرَى لِلْأَرْضِ، فَمَاذَا تُرِيد؟!

كَررَتُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ مُتَقَطِّعٍ:
*لَا شَيْء، لَا شَيْء.

فَقَالَتْ بَاسِمَةَ اَلثَّغْرِ: _
_ أَنَاْ رُقَيَة، جَدَّتِي جَارَةَ عَمِّكَ اَلْحَاجِّ "خَلِيلْ"، وَأَكْمَلَتْ مَعِي اَلسَّيْرَ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ فِي سُرْعَةٍ:
_لَقَدْ رَأَيْتُكَ كَثِيرًا قبلَ اَلْآنِ وَمَا رَأَيْتُنِي أَنْتَ مِنْ قَبْلُ سِوَى اَلْمَرَّةِ اَلْمَاضِيَةِ، رَغْمَ أَنِّي أَتَوَجَّهُ كُلُّ خَمِيسْ إِلَى بَيْتِ جَدَّتِي وَيُصَادِفُ ذَلِكَ زِيَارَتُكَ لِعَمِّكَ، وَعَلِمْتُ أَنَّكَ طَالِب فِي كُلِّيَّةِ اَلْعُلُومِ اَلْإِنْسَانِيَّةِ اَلْقَرِيبَةِ مِنَّا، وَرَغْمُ ذل...

قَاطَعَتَها قَائِلاً:
*كِفِّي عَنْ اَلْحَدِيثِ حَتَّى أَتَحَدَّثَ عَمَّا يَجُولُ بِعَقْلِي.

قَالَتْ فِي شِبْهِ اِسْتِسْلَام:
_قُلْ مَا شِئْت، لَكِنِّي لَنْ أُجِيبَ إِلَّا عَلَى مَا أُرِيدُ.

*كَفَى يَا رُقَيَة ، فَلَمْ يُخَيَّلْ لِي أَنَّكِ مُشَاغِبَةٌ إِلَى هَذَا اَلْحَدِّ،
وَأَسْرَتْ مُحَذِّرًا:
*إِيَّاكِ أَنْ تَتَحَدَّثِي إِلَّا بِانْتِهَاءِ قَوْلِي. فَلَقَدْ أَخْبَرْتِيْنِي أَنَّكِ تَأْتِي لِزِيَارَةِ جَدَتِكِ اَلْخَمِيس، وَالْيَوْمُ هُوَ اَلْجُمْعَةُ.

_نَعَمْ نَعَمْ، لَكِنِّي حِينَمَا أَبْصَرْتُ حِيرَتْ عَيْنَاكَ بِالْأَمْسِ تَأَكَّدَ لِي قُدُومِكَ اَلْيَوْمِ حَتَّى تَرَانِي، وَهَا أَنْتَ قَدْ جِئت وَحَقَّ ظَنِّي. وَمَدَّتْ يَدُهَا لِي قَائِلَةً:
_عَلَيْكَ بِالرَهَانِ.

*أَيْ رِهَانٍ؟!

خَبَطَتْ عَلَى وَجْنَتِهَا وَقَالَتْ فِي لُطْفٍ:
_نَسِيتُ، فَأَنَاْ لَمْ أُرَاهِنْ عَلَى قُدُومِكَ، لَا عَلَيْكَ، هَيَّا مَعِي إِلَى بَيْتِ عَمِّكَ.

وَتَقَدَّمَتْ أَمَامِي، ثُمَّ اِسْتَدَارَتْ لِي أَنَاْ اَلَّذِي أَذْهَلَنِي حَدِيثُهَا، وَأَبْطَأُ مِنْ خُطُوَاتِي وَقَالَتْ:
_هَيَّا تَقَدَّمَ يَا حَمْزَة، فَلَقَدْ غَرَبَتْ اَلشَّمْسُ وَ أَنَاْ لَا أُحِبُّ اَلْغُرُوبُ.

عَلَتْ ضِحْكَتِي قَائِلًا:
*لِمَ لَا تُحِبِّينَهُ؟
فَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّكِ تُحِبِّينَ كُلُّ شَيْءٍ، فَتِلْكَ اَلرُّوحُ اَلْمُنْطَلِقَةُ لَيْسَ بِيَدِهَا أَنْ تَكْرَهَ، فَهِيَ خُلِقَتْ لِتُحِبَّ فَقَطْ، وَدُونَ ذَلِكَ لَا يَحِقُّ لَهَا، وَإِنْ كَانَ...

عَلَتْ ضِحْكَتُهَا فَأَسْرَعَتْ فِي إِخْمَادِهَا وَهِيَ تَقُولُ:
_لَقَدْ اِنْتَقَلَتْ إِلَيْكَ عَدْوَى اَلثَّرْثَرَةِ، لَا تَقْلَق، بِإِمْكَانِي أَنْ أُعَالِجُكَ مِنْهَا.

*فَاقِدِ اَلشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ.

_لَا، بَلْ يُعْطِيهِ وَبِقُوَّةٍ، لِأَنَّهُ اَلْوَحِيدُ اَلَّذِي يَفْتَقِدُهُ، وَيَشْعُرَ بِمَدَى أَهَمِّيَّتِهِ، فَالْأَشْيَاءُ لَا تَظهر أَهَمِّيَّتَهَا إِلَّا حِينَمَا تُفْقَدْ، فَلَنْ تَشْعُرَ بِأَهَمِّيَّةِ اَلسَّيْرِ مَعِي فِي هَذَا اَلطَّرِيقِ إِلَّا حِينَ تَفْقِدْنِي.

وَأَكْمَلَنَا حَدِيثُنَا بَيْنَ اَلْجَدِّ وَالْهَزْلِ حَتَّى اِقْتَرَبْنَا مِنْ بَيْتِ عَمِّي ، أَشَارَتْ إِلَى اَلْبَيْتِ اَلْمُقَابِلِ لَهُ وَقَالَتْ :
_ هَذَا بَيْتُ جَدَّتِي اَلْحَاجَةِ رِفْقَة ، وَانْحَرَفَتْ نَحْوَ بَوَّابَتِهِ تَدْفَعُهَا بِبُطْءٍ وَهِيَ تَقُولُ :
_أَرْسِل مَعَكَ اَلسَّلَامَ لِلْحَاجِّ خَلِيلْ ، إِيَّاكَ أَنْ تَنْسَى .

وَعِنْدَمَا سَأَلْتُ عَمِّي عَنْهَا وَعَمَّ بَدَا مِنْهَا ،
قَالَ :
_ هَذِهِ رُقَيَة حَفِيدَتَهَا لِلْحَاجَةِ رِفْقَة ، وَأَبِيهَا صَدِيقِي اَلْمُقَدِّم " حَسَنْ " ، فَهِيَ فَتَاةٌ مَرِحَةٌ.

كَانَ اَلْخَمِيسَ يَزُفُّ لِي أَمَلاً بِرُؤْيَتِهَا، فَأُسْرِع بَعْدَ اَلِانْتِهَاءِ مِنْ اَلْجَامِعَةِ إِلَى بَيْتِ عَمِّي، قَاصِدًا بِذَلِكَ اَلِالْتِقَاءِ بِهَا فِي اَلطَّرِيقِ ، وَرُبَّمَا تَعَمَّدَتْ هِيَ اَلْأُخْرَى ذَلِكَ، فَدَامَ لِقَاؤُنَا لِعَامٍ كَامِلٍ، لَا أَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا سِوَى مَا قَالَهُ عَمِّي عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا، وَلَم أَرَى أَبَاهَا قَطُّ، عَلَّلَتْ ذَلِكَ بِانْشِغَالِهِ بَعْدَمَا قَالَتْ لِي ذَاتَ مَرَّةٍ :

_ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ ضُبَّاطَ اَلْجَيْشِ حَيَاتَهُمْ اَلْعَسْكَرِيَّةَ تُلْزِمُهُمْ اَلِانْشِغَالَ بِهَا أَغْلَبُ اَلْوَقْتِ، كَانَتْ أُمِّي رَحْمَةَ اللَّه عَلَيْهَا تُخْبِرُنِي بِذَلِكَ كُلَّمَا سَأَلْتُهَا عَنْهُ وَعَنْ سَبَبِ غِيَابِهِ لِأَيَّامٍ، لَكِنْ بَعْدَ مَوْتِهَا سَعَى أَنْ يُخَصِّصَ لِي مُدَّةً أَطْوَلَ لِلْعِنَايَةِ بِي .

حَتَّى فِي فَتْرَةِ اَلْعُطْلَةِ اَلسَّنَوِيَّةِ وَالنِّصْفُ سَنَوِيَّةً، كُنْتَ أَحْرِصُ عَلَى زِيَارَةِ أَعْمَامِي، كَيْ أَلْتَقِي بِهَا، كَمْ أَحْبَبْتُ رُوحُهَا اَلْمُنْطَلِقَةَ ، وَفِطْنَتُهَا، دَائِمًا مَا كَانَتْ تُشْرِقُ مِنْ بَيْنِ اَلْأَرْضِ اَلْخَضْرَاءِ مُمْسِكَةً بِغُصْنِ شَجَرَةٍ وَهِيَ تُدَنْدِنُ بِخُفُوتٍ أُغْنِيَةٍ لِلسَّيِّدَةِ فَيْرُوزْ، وَأَحْيَانًا كَانَتْ تُكْمِلُ مَعِي اَلطَّرِيقُ وَهِيَ تَتَغَنَّى بِهَا .

أَذْكُرُ ذَاتَ مَرَّةٍ مَعَ حُلُولِ شَهْرِ تِشْرِينَ، كَانَتْ تَتَغَنَّى وَتَقُولُ :
_ بَعْدَكَ عَلَى بَالِي . . . يَا قَمَر اَلْحُلْوِيْن، يَا زَهْرَةُ تِشْرِين.

أَصَابَنِي اَلذُّهُولُ حِينَهَا وَالْتَفَتُّ مُصَحِّحًا قَوْلُهَا :
*يَا سَهَرِ بِتِشْرِين . . . مَاذَا لَوْ سَمِعَتْكِ اَلسَّيِّدَةُ فَيْرُوزْ ؟!

_ زَهْرَة . . . سَهر . . . اَلْأَهَمَّ أَنَّهَا تَلِيقُ بِاللَّحْنِ .

*أَرْجُوكِ، إِنْ كَانَتْ كُلُّ كَلِمَاتِكِ تَسْتَبْدِلِينَهَا هَكَذَا ، فَلَا تُغَنِّي مَرَّةً أُخْرَى .

وَكَمَا تَقُولُ اَلسَّيِّدَةُ " أُمْ كُلْثُومْ " " وَضَحِكْنَا ضَحِكَ طِفْلَيْنِ ، وعَدَونَا فَسَبَقْنَا ظِلَنَا " بَلْ وَسَبَقْنَا اَلزَّمَانُ وَالْمَكَانُ ، كُنَّا نُحَلِقُ كَالطَّيْرِ اَلْحُرّ فِي مَلَكُوتِ رَبِّ اَلْعِبَادِ .

كَمْ دَعَوْتُ اللَّه أَنْ أَلْتَقِي أَبَاهَا، وَأَتَقَدَّمُ لِخُطْبَتِهَا مِنْهُ ، لَكِنْ كَيْفَ ذَلِكَ و أَنَا لَا زِلْتُ طَالِب بِالْجَامِعَةِ، وَلَا أَلْتَحِقُ بِعَمَلٍ يَكْفِي لِي اَلْعَيْشُ مَعَهَا ؟!، رَغْمَ مَا كَفَلَهُ لِي قَاسِمْ .

قَاسِمْ خَالي . . . خَالي . . . أَخَذْتُ أُرَدِّدُ تِلْكَ اَلْكَلِمَةِ وأَنَا أَخْطُو نَحْوُ اَلْبَيْتِ، أَتَذَكَّرُ ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي طَالَ اِنْتِظَارُنَا إِلَيْهِ أَنَا وَأُمِّي لِأَكْثَر مِنْ عَامٍ مَضَى، فَفِي زِيَارَتِهِ اَلْأَخِيرَة ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِأُمِّي وَ أَنَا أَقِفُ بِالْخَلْفِ مِنْ بَابِ غُرْفَتِهِ أَسْتَرِقُ اَلسَّمْعُ :

_لَمْ تَعُدْ مَدِينَتَنَا كَمَا كَانَتْ، كُلُّ شَيْءٍ اِنْتَهَى فِي لَمْحِ اَلْبَصَر ، تَهَدَّمَ بَيْتُنَا ، و تَشَرَّدَ أَهْلِنَا فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ ، هَرَبُوا مِنْ مَجْهُولٍ لِآخَرِ، أَكَانَ مِنْ اَلْأَجْدَى لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا هَؤُلَاءِ اَلْغَازِينَ؟!

لَمْ أَلْقِ عَلَيْهِ اَللَّوْمُ حِينَهَا ، رَغْمَ كَوْنِي كُنْتُ فِي اَلْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي، لَكِنِّي عَلِمْتُ جَيِّدًا أَنَّ حُبَّ اَلْقَتْلِ قَدْ سَرَى فِي دَمِ قاسم وَهُوَ مَا دَفَعَهُ لِذَلِكَ، وَاتَّجَهَ حِينِهَا مُتَخَفِّيًا عَبْرَ اَلْحُدُودِ اَلَّتِي تَفْصِلُ مَدِينَتَنَا دَيْرَ اَلزُّورِ عَنْ وَطَنِ أُمِّي " اَلْعِرَاقِ " وَمُنْذُ ذَلِكَ اَلْحِينِ وَاخْتَفَتْ أَخْبَارَهُ، ظَنَّتْ أُمِّي أَنَّهُ قَدْ مَاتَ فِي إِحْدَى عَمَلِيَّاتِ اَلْمُقَاوَمَةِ، لَكِنَّهَا عَادَتْ تَقُولُ:

_ " لَا . . . بَلْ مَا زَالَ حَيًّا ، كَيْفَ يَمُوتُ دُونَ أَنْ يَنْفَطِرَ قَلْبِي حُزْنًا عَلَيْهِ ؟!، أَلَيْسَ هُوَ بِأَخِي اَلْوَحِيدِ ، كَيْفَ لَا أَشْعُرُ بِمَوْتِهِ؟!

وَكُنْتُ أَنَا مِثْلُها ، وَاثِقًا أَنَّهُ لَا زَالَ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ ، فَالْحِكْمَةُ مِنْ وُجُودِهِ فِي حَيَاتِي لَمْ تظْهَرَ بَعْد، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ، كُنْتَ أَقُولُ:
*هُوَ أَبِي اَلَّذِي لَمْ أَرَهُ، وَمَاتَ وَ أَنَا لَا زِلْتُ صَبِيًّا فِي اَلْمَهْدِ، وَرَغْمُ قَسْوَتِهِ، إِلَّا أَنَّنِي أُحِبُّهُ، فَلَمْ يَسْتَخْدِمْ تِلْكَ اَلْقَسْوَةِ مَعِي، فَلَمْ أَكُنْ لِأَعْصِي حَدِيثِ أُمِّي إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ أُغْضِبَهُ، وَأَنْ أَفْقِدْتُ تِلْكَ اَلْمَكَانَةِ اَلَّتِي مَنَحَنِي إِيَّاهَا، فَكُنْتُ اَلْمُدَلَّل عِنْدَهُ، وَفِي صِغْرِي كُنْتَ أَجْلِسُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَشِدْتُ شَارِبَهِ، دُونَ أَنْ يَنْزَعِجَ، وَتَظْهَر تِلْكَ اَلِابْتِسَامَةِ اَلنَّادِرَةِ عَلَى وَجْهِهِ كَأَنَّهَا نَسَمَةُ صَيْفٍ عَابِرَةٍ .

قَاطَعْ تَفْكِيرِي هَذَا، صَوْتٌ يَهْتِفُ بِاسْمِي بِغِلْظَة :
_ حَمْزَة.

اَلتَفَتُّ إِلَيْهِ مُسْرِعًا بَعْدَ أَنْ اِنْخَلَعَ قَلْبِي مِنْ اَلْخَوْفِ، فَرَأَيْتُ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ شَدِيدِي سَوَادِ اَلثِّيَابِ، مُلَثَّمِينَ اَلْوَجْهَ، لَا تَظْهَرْ إِلَّا أَعْيُنُهُمْ، مَيَّزْتُ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ اَلْعُيُونِ عَيْنَان طَالَمَا اِعْتَدْتُ رُؤْيَتُهُمَا، تِلْكَ اَلْعَيْن اَلْحَزِينَةِ اَلْحَائِرَةِ، تَتَوَسَّطَ تِلْكَ اَلْعُيُونِ، أَزَاحَ صَاحِبُهَا اَلشَّالْ مِنْ عَلَى وَجْهِهِ لِيَتَأَكَّدَ لِي ظَنِّي، فَهَرْوَلْتُ إِلَيْهِ وَاَرْتَمَيْتُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، أَتَنَسَّمُ رَائِحَتُهُ فَأَعُودُ لِذِكْرَيَاتِ اَلطُّفُولَةِ، لِلْمَرَّةِ اَلْأُولَى أَهْتِف قَائِلًا :
_ أَبِي قَاسِمْ، قَدْ طَالَ غِيَابُكَ، وَيَئِسَتْ أُمِّي مِنْ عَوْدَتِكَ، لَكِنِّي كُنْتَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّكَ حَي، وَأَنَّ اَللَّه لَنْ يُذِيقَنِي اَلْيُتْمَ مَرَّةً أُخْرَى، وَهَا أَنَاْ قَدْ كَبِرْتُ فِي اَلْعُمْرِ وَأَصْبَحْتُ طَالِبًا جَامِعِيًّا يَدْرِسُ اَلتَّارِيخُ ، وَرُبَّمَا يُدَرِسُهُ يَوْمًا مَا .
اسْتَكْمَلَنَا اَلسَّيْرُ وَمِنْ خَلْفِنَا اَلرَّجُلَانِ اَلْمُلَثَّمَانِ ، وَنَطَقَ حِينِهَا أَوَّلَ قَوْلٍ لَهُ فَتَسَاءَلَ :
_ مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ سَتُصْبِحُ أُسْتَاذًا ؟

*أَرْغَبُ فِي ذَلِكَ يَا أَبِي .

_ لَا ، بَلْ سَنُسَطِرا سَوِيًّا اَلتَّارِيخُ ، وَلَنْ نُدَرِسْهُ ، سَنَمْحُو كُلَّ مَا مَضَى ، وَيَظَلّ تَارِيخُنَا هُوَ اَلْبَاقِي .

تَعَجَّبْتُ مِنْ حَدِيثِهِ هَذَا وَكِدُّ أَسْأَلُ عَنْ مَعْنَى مَا يَقُولُ ، لَكِنَّهُ أَكْمَلَ قَائِلاً : _
_تَتَذَكَّرَ يَوْم أَنْ قُلْت لَكَ إِنَّنِي سَأَعُودُ بِكَ إِلَى وَطَنِ أُمِّكَ اَلْعِرَاقَ .

*نَعْم أَتَذَكَّر.

_ وَقَدْ حَانَ اَلْوَقْتُ اَلْآنَ ، هَيَّا اِسْتَعِدْ لِلرَّحِيلِ
.
*اَلْيَوْمُ ؟!

ضَحِكَ سَاخِرًا وَقَالَ :
_ لَا ، بَلْ بَعْد غَدٍ .

كَانَ بِإِمْكَانِي أَنْ أَرْفُضَ طَلَبُ قَاسِمْ مُبَرِّرًا ذَلِكَ بِرَغْبَتِي فِي اِسْتِكْمَالِ دِرَاسَتِي ، لَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْهَا ، كِدُّ أَشْعُرُ أَنَّهُ يَشُدُّنِي نَحْوهُ بِوِثَاقٍ قَوِيٍّ ، لَا مَفَرَّ مِنْهُ ، فَمَا رَأَيْتُهُ إِلَّا وَاَرْتَمَيْتُ بَيْنَ أَحْضَانِهِ ، لَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ بِتِلْكَ اَلسَّكِينَةِ اَلَّتِي طَالَمَا أَصَابَتْنِي كُلَّمَا اِلْتَقَيْتُهُ ، كَانَتْ رَائِحَتُهُ رَائِحَةَ اَلْمَوْتِ . . .

كَمْ دَعَوْتُ اَللَّه أَنْ يَرْحَلَ مِنْ دُونِي ، فَالشَّوْقُ إِلَى رُقَية قَيَّدَنِي ، وَيَحْرِمَنِي مِنْ اَلرَّحِيلِ ، وَسُرْعَانَ مَا عَادَ قَاسِمْ إِلَى اَلْعِرَاقِ وَحْدَهُ ، دُونَ أَنْ يُكَرِّرَ طَلَبُهُ مِنِّي بِالذَّهَابِ ، لِسَبَبٍ لَا عِلْمَ لِي بِهِ ، فَحَمَدْتُ اَللَّه كَثِيرًا ، بَعْدَمَا سَنَحَ لِي فُرْصَةُ لِقَائِهَا مُجَدَّدًا ، فَقَدْ طَالَ شَوْقِي إِلَيْهَا لِيضْعَةِ أَيَّامٍ مَكَثَهَا قَاسِمْ مَعِي ، وَعُدْتُ اَلسَّيْرَ نَحْوَ ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ بَاحِثًا عَنْهَا ، مُتَلَهِّف رُؤْيَتِهَا . لَكِنْ لَمْ أَعْثُر عَلَيهَا ، دَامَ تَرَدُّدِي عَلَى مَكَانٍ لِقَائِنَاً مِرَارًا ، وَقَدْ اِخْتَفَتْ وَكَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ، وَلَوْلَا مَا قَالَهُ عَمِّي ، لَحَسِبْتُ أَنَّهَا شَبَحٌ ظَهَرَ لِي يُؤْنِسُ وَحْدَتِي فِي هَذَا اَلطَّرِيقِ ، وَلَمْ أَجْرُؤ عَلَى طَرْقِ بَابِ بَيْتِ جَدَّتِهَا أَسْأَلُ عَنْهَا ، تَرَدَدَتُ كَثِيرًا وَأَنَاْ أَمُرُ مِنْ أَمَامِ اَلْبَابِ ، حَتَّى تَقَدَّمْتُ نَحْوهُ ذَاتَ يَوْم وَطَرَقْتَهُ طَرَقَاتٍ هَادِئَة ، وَكُلِّي حَرَارَةً ، وَانْفَتَحَ اَلْبَابُ أَمَامِي ، وَرَحَّبَتْ بِي جَدَّتُهَا ، فَقُلْتُ مُرْتَجِفًا :
* أَنَاْ حَمْزَة ، عَمِّي اَلْحَاجُّ خَلِيلْ " مُشِيرًا لِبَيْتِهِ " .

رَحَّبَتْ بِي وَصَاحَبَتْنِي لِلدَّاخِلِ ، وَقَدَّمَتْ لِي بَعْضِ اَلْحَلْوَى ، وَتَرَدَّدْتُ فِي سُؤَالِهَا ، فَقُلْتُ :
*جِئْتُ أَطْمَئِنَّ عَلَيْكِ، فَلَقَدْ أَخْبَرَنِي عَمِّي أَنَّكِ تَجْلِسِينَ وَحْدَكِ ، فَقُلْتُ عَلَّنِي أُؤْنِسُ وِحْدَتُكِ .

رَبَطَتْ عَلَى يَدِي وَتَبَسَّمَتْ بَسْمَةٍ حَانِيَةٍ :
_ بَارَكَ اَللَّه بِعُمْرِكَ يَا اِبْنِي ، كَأَنَّكَ مَلَكٌ مِنْ اَللَّهِ جِئْتُ لِتُهَوِّنْ عَلَيَّ رَاحِيلِ رُقَيَة .

اِصْطَنَعْتُ اَلْهُدُوءَ وَ أَنَاْ أَتَسَاءَلُ :
*مَاذَا حَدَثَ لَهَا ؟!

_ سَافَرَتْ إِلَى رِيفِ دِمَشْق ، مُتَنَقِّلَةً مَعَ أَبِيهَا .

سَأَكُونُ كَاذِبًا إِذَا مَا قُلْتُ بِأَنَّنِي تَأَلَّمْتُ مِنْ قَوْلِ اَلْحَاجَةِ رِفْقَة ، نَعْم حَزِينٌ عَلَى فِرَاقِ رُقَيَة لَكِنْ حُزْن لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ اَلْأَلَمِ ، أَوْ كَانَ أَلَمًا حِينَهَا ، لَكِنْ اَلْآنَ أَرَى بِأَنَّهُ لَيْسَ بِأَلَمٍ . . .

أَدْرَكْتُ بَعْدَهَا أَنَّ اَلْأَلَمَ اَلْحَقِيقِيَّ هُوَ أَنْ نَلْتَقِي بِمَنْ يَهْوَاهُ قَلْبُنَا فِي زَمَنٍ لَا يَصْلُحُ فِيهِ اَلْحُبُّ ، زَمَنُ اَلْخَرَابِ وَالدَّمَارِ ، فَلَا يُصْبِحُ فِي قَلْبِكَ مَوْضِعَ حُبٍّ . فَمَاذَا حَدَثَ بَعْدَهَا ؟ أَحْسَبُ أَنَّكَ تَتَسَاءَلَ اَلْآنَ . تَمَهَّلْ ، فَسَأُخْبِرُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ .

تَعَوَدْتُ زِيَارَةَ اَلسَّيِّدَةِ رِفْقَة كَيْ نَتَسَامَرَ كُلُّ مَسَاءٍ ، وَأَقْضِي عَلَى وَحْشَةِ لَيْلِهَا بَعْدَمَا رَحَلَتْ عَنْهَا رُقَيَة ، عِرْفَانًا بِالْجَمِيلِ لِرُقَيَة اَلَّتِي أَنَسَتْ وِحْدَتِي اَلْأَشْهُرِ اَلسَّابِقَةِ لِشَهْرِي هَذَا ، وَمَرَّتْ اَلْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ حَتَّى أَضْحَيْنَا عَلَى مَشَارِفَ آذَارَ لِعَامِ ٢٠١١ م ، تَارِيخٌ لَمْ وَلَنْ يَنْسَاهُ أَيُّ سُورِيٍّ ، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ اَلْوَقْتِ ، فَقَدْ جَاءَ قَاسِمْ فِي بِدَايَتِهِ ، قَبْلَ نُشُوبِ اَلثَّوْرَةِ بِأَيَّام ، وَجَذَبَنِي نَحْوهُ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ اَلرَّفْضُ بَعْدَ رَحِيلِ رُقَيَة ، فَحَيَاتِي مَعَ قَاسِمْ كَالطِّفْلِ اَلَّذِي انْتَفَضَ مِنْ بَيْنِ أَحْضَانِ أُمِّهِ ، وَسَارَ فِي تِلْكَ اَلْحَيَاةِ يَبْحَثُ عَنْ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ لِيَنْهَض وَيَتَعَلَّمَ اَلسَّيْرُ ، وَلَمْ أَجِدْ سِوَى قَاسِمْ ، عَلَّمَنِي كَيْفَ أُفَكِّرُ ، أَتَحَدَّثُ ، أَتَحَرَّكُ ، كُنْتَ أُحَاكِيهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي صِغَرِي ، حَتَّى عِنْدَمَا لَاحَظْتُ سَمَاعَهُ لِلْمُوسِيقَى ، أَحْبَبْتُهَا ، وَعِنْدَمَا كَفَّ عَنْ سَمَاعِهَا وَأَمَرَنِي بِالِابْتِعَادِ ، اِبْتَعَدْتُ دُونَ أَنْ أُزِيدَ اَلْقَوْلِ ، حَتَّى يَوْم أَنْ أَمَرَنِي بِالْفِرَارِ مِنْ سُورْيَا ، فَرَرْتُ . وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ إِرَادَتِهِ . وَنَفَّذْتُ أَمْرَهُ فِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ اَلْأَوَّلَ مِنْ آذَار، تَارِكًا أُمِّي وَجَامِعَتِي ، مُتَنَقِّلًا مِنْ قَرْيَةٍ لِأُخْرَى ، حَتَّى بَلَغْتُ اَلْحُدُودَ اَلسُّورِيَّةُ اَلْعِرَاقِيَّةُ عِنْدَ مِنْطَقَةِ اَلْبُو كَمَال ، نَزَلْنَا حِينُهَا عِنْدَ إِحْدَى اَلْعَشَائِرِ اَلْمُقِيمَةِ فِي هَذَا اَلنِّطَاقِ ، وَمَا إِنْ رَأَى أَحَدُ رِجَالِهَا قَاسِمْ حَتَّى هَرْوَلْ إِلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ ، وَأَنْزَلْنَا عِنْدَهُ لَيْلَةٌ كَامِلَةٌ ، جَلَسْتُ فِيهَا حَائِرًا مُضْطَرِبًا ، بَدَا لِي اَلْهَلَاكُ يُلَوِّحُ مِنْ بَعِيدٍ ، لَمْ أَنَمْ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ ، لِأَنَّ صُورَةَ أُمِّي وَهِيَ تُوَدِّعُنِي أَخَذَتْ تَحْضُرُ أَمَامِي بِقُوَّةٍ كُلَّمَا هَمَمْتُ بِإِسْدَالِ اَلْجُفُونِ عَلَى عَيْنِي ، أَرَى صُورَتُهَا حَزِينَةً تَنْهَمِرُ اَلدُّمُوعُ عَلَى وِجْنَتَيْهَا ، فَاسْتَيْقَظْتُ فَزَعًا ، فَالْتَفَتَ لِي خَالِي اَلْجَالِس مَعِي فِي ذَاتِ اَلْخَيْمَةِ مُمْسِكًا بِخِنْجَرٍ يُلَمِّعُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :
_ لَا تَقْلَقْ . فَهِيَ أَمَانَةٌ عِنْدَ اَلْحَاجَّةِ رِفْقَة كَمَا طَلَبْت

وَتَذَكَّرْتُ مَا قَالَهُ لَهَا حِينَ اَلْوَدَاعِ : -
لَا تَقْلَقِي ، فَابْنُكِ أَمَانَة فِي عُنُقِي . وَكَأَنَّهُ وَعْد إِخْوَةُ يُوسُفْ .

وَأَكْمَلْنَا ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ اَلْمُظْلِمِ نَحْوَ اَلْقَائِمِ ، دَخَلْنَا اَلْمَدِينَةُ عَلَى أَعْيُنِ اَلنَّاسِ ، هَؤُلَاءِ اَلَّذِينَ رَحَّبُوا بِقَاسِمِ ، خُيِّلَ لِي أَنَّهُمْ يُرَحِّبُونَ بِالْهَلَاكِ ، فَمَاذَا لَوْ لَمْ يُخْلَقَ قَاسِمْ فِي هَذَا اَلزَّمَانِ ؟ ، هَلْ سَيَمْنَع عَنْهُمْ ذَلِكَ وَيْلَاتُ مَا عَانُوهُ مَعَهُ ؟ أَتَدْرِي عَنْ أَيِّ عَنَاءٍ أَتَحَدَّث ؟ سَأُخْبِرُك ، وَأَرْجُو أَنْ تَغْفِرَ لِي قَسْوَةُ قَوْلِي ، فَسَأَبْدَأُ لَكَ حَيْثُ بَدَأْتُ مَعَ قَاسِمْ ، يَوْمَ تَوَقَّفْتُ أَمَامَهُ عَاصِيًا مُمَانِعًا لِتَنْفِيذِ حُكْمِ اَلشَّرْعِ فِي طِفْلٍ سَرَقَ ، وَقُلْتُ غَاضِبًا:

*يَا لَا اَلْعَجَب ، طِفْلٌ تُقْطَعَ يَدِهِ تَنْفِيذًا لِحُكْمٍ لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ .

أَجَابَ بِبُرُودٍ :
_لِمَ اَلتَّعَجُّبِ؟! فَلَقَدْ سَرَقَ ، وَقَطْع يَدِ اَلسَّارِقِ هُوَ حَدُّ اَلسَّرِقَةِ

. * لَكِنَّهُ طِفْلٌ لَمْ يَتَجَاوَزْ اَلثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، لَا يَدْرِي مَعْنَى اَلسَّرِقَةِ ، وَإِنْ أَدْرَكَ ، فَهُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا ، كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَمْنَعَ مُسَبِّبَاتُ اَلسَّرِقَةِ ، وَبَعْدَهَا قُمْ بِعِقَابِهِ إِنْ كَرَّرَهَا ، فَهُوَ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، بَلْ دَفَعَتْهُ اَلْحَاجَةُ ، وَنَحْنُ مَنْ فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ اَلْحَاجَةُ ، وَفِعْل " عُمَيْر " نَمُوذَجٍ مُصَغَّرٍ لِأَفْعَالِكُمْ ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُطَبِّقَ حَدُّ اَللَّهِ عَلَيْنَا أَوَّلاً ثُمَّ عَلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِهِ مِنْ اَلسَّارِقِينَ .

_ إِنْ لَمْ تُطَبِّقْهُ أَنْتَ ، سَيُطَبِّقُهُ غَيْرَكَ .

*لَا أَنَا وَلَا غَيْرِي ، فَمَا تَقُومُونَ بِهِ مَا هُوَ إِلَّا إِرْهَابٌ . يَا لَا اَلْعَجَب ، طِفْلٌ تُقْطَعَ يَدِهِ عَلَى أَعْيُنِ اَلنَّاسِ ، تَطْبِيقًا لِشَرْعِ اَللَّهِ حَتَّى تَظْهَرُوا بِمَظْهَرِ اَلْمُطَبِّقُ لَهُ ، وَالْحَقِيقَةُ هِيَ إِرْهَابٌ .

_ " وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ "

*قَاطَعْتَهُ :

" فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ "، وَهَذَا اَلطِّفْلُ يَتِيم وَأَيْضًا سَائِل .

أَخَذْتُ أُذَكِّرُهُ بِيَوم أَنْ جَمَعْنَا أَطْفَالُ الْبَلْدَةِ ، وَعَزَمْنَا تَنْشِئَتَهُمْ تَنْشِئَةً سَلِيمَةً ، جَمَعْنَا اَلْفَقِيرُ ، وَالْجَائِعَ ، اَلْمَحْرُومَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ ذَلِكَ اَلطِّفْلِ ، يَسْعَى لِتَدْبِيرِ قُوتِ يَوْمِهِ حَتَّى يَرْفَعَ عَنْ أَخَوَاتِهِ اَلصِّغَارَ أَلَمَ اَلْجُوعِ وَالْحِرْمَانِ بَعْدَ أَنْ مَاتَ أَبُوهُمْ عَلَى أَيْدِينَا ، يَوْم أَنْ حَمَلْنَاهُ مَعَ اَلْكَثِيرِ إِلَى أَحَدِ اَلْمَيَادِينِ اَلْعَامَّةِ وَأَعْمَلْنَا فِيهِمْ اَلْقَتْلُ حَتَّى يَفْزَعَ مِنَّا أَهْلَ اَلْمَدِينَةِ .

*تَتَذَكَّرَ يَوْم أَنْ قُلْتُ لِي عَلْم هَذَا اَلطِّفْلِ وَمَنْ مَعَهُ اَلصَّلَاةُ وَقِرَاءَةُ اَلْقُرْآنِ قِرَاءَةً صَحِيحَةً ، حَتَّى قَالَ أَهَالِيهُمْ أَنَّنَا أَهْلُ دِينٍ ، وَسُرْعَانَ مَا قَسَتْ قُلُوبَهُمْ مَعَنَا فَحَمَلُوا اَلسِّلَاحَ مُقَاتِلِينَ ، دَفَعَنَا بِهُمْ فِي اَلصُّفُوفِ اَلْأَمَامِيَّةِ لِلْقِتَالِ ، وَعِنْدَمَا تَجَرَّأَ أَحَدُهُمْ سَارِقًا هَذَا اَلسِّلَاحِ أَقَمْنَا عَلَيْهِ اَلْحَدُّ ، وَنَحْنُ مَنْ عَوَّدْنَاهُ حَمْلَهُ . وَأَمَامَ إِصْرَارِي عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ لِي :

_ لِأَجْلِكَ أَنْتَ لَنْ نَفْعَل بِهِ شَيْئًا ، لَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنَّ اَلسَّرِقَةَ مُحَرَّمَةٌ .

*أَوْمَأْتُ رَأْسِي رَاضِيًا.

حَسِبْتُ أَنَّ قَاسِمْ بَدَأَ يَتَغَيَّرُ شَيْءَ فَشَيْءٍ ، وَبِالْقَرِيبِ سَيَعُودُ إِلَى وَسَطِيَّتِهِ ، وَنَلْجَأُ إِلَى أَرْضٍ مُسْتَقِرَّةٍ كَانَتْ سُورْيَا أَوْ أَيِّ دَوْلَةٍ تُحِيطُ بِنَا ، حَتَّى يَشَاءَ اللَّه أَنْ يُطَهِّرَ أَرْضَنَا مِنْ هَؤُلَاءِ ، لِيَعُودَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى عِرَاقِهِ .
وَطَالَ غِيَابِي عَنْ اَلْبَيْتِ اَلَّذِي اِتَّخَذْنَاهُ مُسْتَقَرًّا لَنَا حَتَّى غُرُوبِ اَلشَّمْسِ ، هَائِمًا فِي اَلطُّرُقَاتِ ، لَا أُبَالِي بِكُلِّ مَا حَوْلِي ، أَعْقِدُ يَدِي خَلْفَ ظَهْرِي ، أَضْرِبُ اَلْأَرْضِ بِقَدَمِي ، بَدَا لِي اَلشُّعُورُ بِالْأَمَانِ يَتَجَلَّى مَعَ اِنْحِدَارِ اَلشَّمْسِ بِالْأُفُقِ خِلَاف مَا كَانَتْ تَرَى رُقَيَة، أَخَذْتُ أُرَتِّبُ أَفْكَارِي وَأَتَسَاءَل :
*كَيْفَ لِي أَنْ أُعِيدَ صِيَاغَةَ اَلْفِكْرِ اَلْعَقَائِدِي لَدَى هَؤُلَاءِ اَلْأَطْفَالِ ؟
أَكْمَلْتُ سَيْرِي مُتَرَنِّحًا بَيْنَ اَلْبُيُوتِ اَلسَّاكِنَةِ وَالشَّمْسِ اَلَّتِي بَدَتْ تَخْتَفِي بِالْوَرَاءِ مِنْهَا مَسْلُوبَةُ اَلْقُوَّةِ ، تَارِكًا لِقَدَمِي حُرِّيَّةَ اَلْحَرَكَةِ ، وَقَدْ سَادَ اَلظَّلَامُ اَلْمَدِينَةَ ، وَتَنَاسَيتُ مَعَهُ أَمْرَ اَلطِّفْلِ ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ لَا أَأْمَن لِقَاسِم ، كُنْتُ حَقًّا مَوْهُومًا سَاذِجًا ، خُيِّلَ لِي أَنَّ قَاسِمْ بِإِمْكَانِهِ اَلتَّرَاجُعُ عَنْ فِكْرَةِ اِسْتَبَدَّتْ بِعَقْلِهِ مِنْ أَجْلِي ، وَلَمْ يَكُنْ اَلْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَتَحَقَّقَ مَا سَعَى إِلَيْهِ بِيَدِ غَيْرِي ، تَأْكَدَ لِي ذَلِكَ عِنْدَمَا قَادَتْنِي قَدَمِي نَحْوَ بَيْتِ عُمَيْر ، وَعِنْدَمَا دَنَوْتُ مِنْهُ ، أَبْصَرْتُ بِيَدٍ صَغِيرَةٍ مُعَلَّقَةٍ عَلَى جِزْعِ شَجَرَةٍ ، وَالدِّمَاءُ تَتَسَاقَطُ مِنْهَا ، وَلَمْ تَجِفْ بَعْد ، أَسْرَعْتُ مُهَرْوِلاً نَحْوَ بَيْتِ اَلصَبِي ، وَأَمَامَ اَلْبَيْتِ وَجَدْتُ أُمَّهُ تَصْرُخُ وَتَبْكِي وَتَقُولُ :
_ قَاتَلَكُمْ اللَّه ، لَقَدْ خَرَّبْتُمْ حَيَاتُنَا ، خَرَّبْتُمُوهَا وَلَمْ تَأْتُوا مِنْ أَجْلِنَا ، يَا لَيْتَنَا مُتْنَا كَافِرِينَ كَمَا كُنْتُمْ تَزْعَمُونَ ، وَلَمْ نَرَ وُجُوهُكُمْ اَلْغَابِرَةُ ؛ يَا لَيْتَنَا خُلِقْنَا فِي زَمَنٍ لَيْسَ بِزَمَانِكُمْ .

اِقْتَرَبْتُ مُحَاوِلًا أَنْ أَعِي مَا حَدَث ، فَهَلْ خَانَ قَاسِمْ عَهْدِهِ مَعِي ؟!
هَلْ كَذَبَ ؟!

مِنْ قَبْلِ هَذَا اَلْيَوْم ، خَانَ حُبِّي لَهُ يَوْم أَنْ دَفَعَنِي نَحْوَ اَلظَّلَامِ دُونَ أُمِّي ، وَخَانَ عَهْدُهُ لَهَا ، لِتَحْسَب أَنِّي بِأَمَانٍ ، وَ أَنَاْ عَنْ اَلْأَمَانِ لَسْتُ بِقَرِيب ، فَصُورَتُهَا لَمْ تَغْرُبْ عَنِّي وَبَاتَتْ تَتَجَلَّى لِي بَيْنَ حِينٍ وَحِين ، فَأَشْعُرُ بِتِلْكَ اَلْغُصَّةِ فِي قَلْبِي ، و تَرِقُّ عَيْنِي بِالدَّمْعِ .
أَشْعُرُ بِأَنَّ اَلْأَرْضَ لَمْ تَعُدْ ثَابِتَةً مِنْ تَحْتِي بَلْ تَدُورُ بِسُرْعَةِ جَوَاد فِي صَحْرَاءٍ قَاحِلَةٍ يَبْكِي قَتْلَ صَاحِبِهِ ، وَكُنْتُ أَنَاْ اَلْحِصَانُ ، وَكَانَ اَلصَبِي صَاحِبِي . وَطَلَبْتُ بِرُؤْيَةِ اَلطِّفْلِ اَلَّذِي أَبْصَرْتُ فِي عَيْنَيْهِ اَلرُّعْبُ وَالْحَيْرَةُ وَالْقَلَقُ ، مَشَاعِر مُخْتَلَطَةٍ اِحْتَوَتْهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ ، تَوَقَّفْتُ أَمَامَهُ أَقْرَأُ مَا بَدَا فِي عَيْنَيْهِ ، كَأَنَّهُ يُبْكِي فَقْدَ يَدِهِ ، مَفْزُوعًا مِمَّا رَأَى ، قَلِقًا عَلَى حَيَاتِهِ مَعَ هَؤُلَاءِ ، وَدَدْتُ أَنْ أَحْتَضِنَهُ وَأَقُولُ : أَنَاْ مَعَكَ ، لَا تَخَفْ، إِنَّ اَللَّهَ يَسْمَع وَيَرَى .

وَلَمْ أَسْتَطِعْ ، خَشِيْتُ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَيْهِ اَلْخَوْفُ اَلَّذِي تَمَلَّكَنِي ، أَخْفَيْتُ عَيْنِي عَنْهُ حَتَّى لَا يَرَى فِيهَا بُحَيْرَةُ اَلرُّعْبِ وَالِانْكِسَارِ وَالْيَأْسِ ، يَئِسْتُ ، وَوَدَدْتُ لَوْ مَدَّ اَللَّهِ يَدَهُ لِي وَحَارَبْنَا بِهَا هَؤُلَاءِ ، فَرَأَيْتُ أَنَّ يَدُ اَللَّهِ مَسَحَتْ عَلَى قَلْبِي ، وَرَفَعْتُ يَدِي وَ أَنَاْ وَاقِفٌ بِالْأَمَامِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَقُلْتُ صَارِخًا :
*رَبِّي رُدَّ كَيْدَ اَلظَّالِمِينَ ، رُدْهُمْ رَبِّي خَائِبِينَ ، رَفَعْتُ رَأْسِي لِلسَّمَاءِ وَ أَنَاْ أُكْمِل اَلْقَوْلُ :
*إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟
إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ؟
أَمْ إِلَى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؟

وَسَقَطْتُ مَغْشِيًّا عَلَى اَلْأَرْضِ ، وَلَمْ أَتَذَكَّرْ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ . بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصُرَتْ أَمْ طَالَتْ ، فَتَحْتُ عَيْنِي بِبُطْءٍ مَهْمُومًا تَعِسًا ، ذِكْرَى اَلطِّفْلِ تَحْضُرُ أَمَامِي بِقُوَّةٍ ، وَظَلَّتْ ذِكْرَيَاتِي مَعَ رُقَيَة تَمُرُّ أَمَامِي ، كَأَنَّهَا تَقُولُ لِي :
_لَنْ تَسْتَطِيعَ إِلْقَائِي فِي غَيَابَةِ اَلْجُبِّ ، سَتَحِنُّ لِي دَائِمًا ، يَا لَيْتَ كَانَتْ تِلْكَ اَلذِّكْرَيَاتِ فِي زَمَنٍ غَيْرِ اَلَّذِي نَعِيشُ فِيهِ . اِنْتَفَضْتُ مِنْ اَلْفِرَاشِ وَ أَنَا أَصْرُخُ ، دَفَنْتُ وَجْهِي بَيْنَ كُفُوفِي وَ أَنَا أَدْعُو بَاكِيًا :
*يَا رَب يَا رَبِّي ، وَكَّلْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَصَرَخْتُ بِقَوْلِي :
يَا اللَّه . . . يَا اللَّه .

اِسْتَمَعَ لِي قَاسِمْ اَلْمُنْتَظِرْ بِالْخَارِجِ ، وَقَدْ أَيْقَنْتُ ذَاكَ بَعْدَمَا وَجَدْتُهُ مُسْرِعًا نَحْوِي ، اِحْتَضَنَنِي بِقُوَّةٍ وَقَالَ يَلُومُنِي :
_ لَا زِلْتُ ضَعِيفًا ، لَكِنَّكَ مَعَ اَلْأَيَّامِ سَتَقْوَىْ وَتُصْبِح حَجَرًا صَلْدًا .

اَرْتَمَيْتُ عَلَى اَلْفِرَاشِ وَاعْتَلَتْ ضِحْكَتِي ، وَتَلَوْتُ فِي قَلْبِي:
*"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً "
وَجَهَرْتُ بِنِهَايَتِهَا :
*"وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ".

حَدَّقَ قَاسِم اَلْجَالِسِ عِنْدَ أَطْرَافِ فِرَاشِ لِيّ، ثُمَّ قَالَ :
_ إِلَى مَتَى سَتَظَلُّ مُمَانِعًا لِلْجِهَادِ؟! ، لَيْتَكَ تَمْنَعُهُ دُونَ أَنْ تَصُدَّنَا عَنْهُ ، كَانَ سَيَهُون اَلْأَمْرُ حِينَهَا ، فَهَذَا لَيْسَ ذَنْبُكَ ، بَلْ ذَنْبُ اَلْمَدَنِيَّةِ اَلَّتِي دَمَّرَتْ عُقُولُ أَجْيَالٍ عِدَّة.

تَأَكَدَ لِي حِينِهَا أَنَّ مَا زُرِعَ بِدَاخِلِ عَقْلِهِ لَا يُمْكِن اِقْتِلَاعُهُ إِلَّا بِاقْتِلَاعِ اَلرَّأْسِ ، وَقَدْ اِخْتَارَ قَاسِمْ نَفْسَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَعَلَيَّ اِخْتِيارُ نَفْسِيّ ، فَطَبَّقْتُ عَلَيْهِ أَوَّلَ دَرْسٍ اِسْتَمَعْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ وَسَطَّرْتُ تَارِيخِي ، وَأَسْرَعْتُ اَلْعَوْدَةُ .

كَمْ تَمَنَّيْتُ حِينَ اَلْعَوْدَة أَنْ يَتَوَقَّفَ قَلْبِي عَنْ اَلنَّبْضِ ، حَتَّى لَا أَرَى فِي عَيْنِ أُمِي اَلْحُزْنِ عَلَيْهِ ، وَحَسِبْتُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ اَلْعَائِقُ اَلْوَحِيدُ اَلَّذِي يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنِهَا ، بَيْنَ أَنْ أَرْتَمِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا ، وَتَحْتَضِنُنِي هِيَ بِقُوَّةٍ مُفْعَمَةٍ بِحَنَانٍ ، لَكِنِّي كُنْتُ مَوْهُومًا ، فَلَمْ أَرَاهَا ، أَخْبَرُونِي أَنَّهَا قُتِلَتْ عَلَى يَدِ جَيْشِ اَلنِّظَامِ ، أَخْبَرُونِي وَلَمْ أَرَ ، وَتَذَكَّرْتُ قَاسِمْ مِنْ جَدِيد ، فَلَقَدْ اِعْتَادَ اَلْكَذِب حَتَّى بَعْدِ رَحِيلِهِ ، وَخَانَ اَلْعَهْد ، وَلَمْ تَكُنْ أُمِّي فِي مَأْمَنٍ ، بَلْ دَفْعَهَا نَحْوَ قَدَرُهَا ، وَخَاضَتْ مَعْمَعَةُ اَلْمَوْتِ مَعَ اَلْآلَافِ وَالْآلَافِ ، وَخُضْتُ أَنَا تَجْرِبَةُ اَلسَّرَابِ .

لَمْ أَكُنْ أَدْرِي حِينَهَا أَنَّ هَذَا يَعْنِي اَلسَّرَابُ ، بَلْ حَسِبْتُ أَنَّ مَا سَأَفْعَلُهُ سَيُزِيحُ ذَلِكَ اَلْحُزْنِ اَلَّذِي أَنْهَكَهُ اَلْفِرَاقُ ، سَيُدَاوِي جِرَاحُ ذَلِكَ اَللَّطِيمِ اَلَّذِي وَجَدَ نَفْسَهُ ضَائِعًا ، مَاتَ أَبُوهُ مِنْ قَبْلُ ثُمَّ أُمِّهِ ، وَقُتِلَ خَالُهُ عَلَى يَدِهِ ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ وَطَنًا يَأْوِي إِلَيْهِ ، كَانَ وَطَن أَبِيهِ أَوْ وَطَن أُمِّهِ، فَبِتُّ أَبْكِي أُمِي وَمَعَهَا سُورْيَا ، بَاتَ قَلْبِي يَنْزِفُ دَمًا ، فَأَنَا مُشَرَّدٌ بِلَا مَأْوَى ، أَيُّ حَيَاةٍ تِلْكَ اَلَّتِي تَقْسُو عَلَى صَاحِبِهَا ، حَتَّى رُقَيَة ، لَا عِلْمَ لِي بِمَكَانِهَا وَسَطَ ذَلِكَ اَلْخَرَابِ ، فَلَطَالَمَا سَعَيْتُ لِرُؤْيَتِهَا ، وَبِتُّ أَبْحَثُ عَنْ صُورَةِ أَبِيهَا بَيْنَ صُوَرِ اَلضُّبَّاطِ اَلَّذِينَ قَتَلْتُهُمْ بِيَدِي اِنْتِقَامًا لِأُمِّي، لَكِنِّي لَمْ أَكُن أَعْلَمَهُ ، وَقَتَلْتَهُ وَمِنْ قَبْل قَتْلِهِ قَتَلْتُهَا قَلْبًا دُونَ اَلْجَسَدِ ، يَوْم أَنْ اِتَّجَهْتُ مُلَثَّمًا مَعَ قُوَّاتِ اَلظَّلَامِ ، مُدَاهِمًا بَيْتَ أَحَدِ اَلضُّبَّاطِ اَلَّذِينَ قَتَلْنَاهُمْ فِي رِيفِ دِمَشْق ، وَمَا أَنْ خَطَوْتُ أَوَّلُ خُطُوَاتِي ، اِلْتَقَتْ عَيْنِي عَيْنَاهَا ، وَدَدْتُ أَنْ أُخْبِرَهَا مَنْ أَنَا ، وَأُزِيحُ ذَلِكَ اَلشَّالْ مِنْ عَلَى وَجْهِي ، وَلَمْ أَتَجَرَّأْ عَلَى ذَلِكَ .

وَجَدْتُهَا خَائِفَةً مُرْتَعِدَة تَجْلِسُ فِي أَحَدِ أَرْكَانِ اَلْبَيْتِ ، دَافِنَةً وَجْهَهَا بَيْنَ كَفَّيْهَا اَلصَّغِيرَيْنِ . فَهَلْ هَذِهِ هِيَ رُقَيَة اَلَّتِي طَالَمَا أَشْرَقَتْ مِنْ بَيْنِ اَلْأَرْضِ اَلْخَضْرَاءِ كَطَيْرٍ حُرٍّ فِي جِنَانْ رَبَّ اَلْعِبَادِ؟ .
لَكِنْ أَيْنَ اَلْأَرْضُ اَلْخَضْرَاءُ ؟
وَأَيْنَ ذَلِكَ اَلطَّائِرِ؟
، هَلْ بَاتَ مَجْرُوحًا؟ ، يَجْلِسَ أَمَامِي بَاكِيًا

يَا وَيْلَتِي عَلَى مَا جَنَيْتُ عَلَيْهَا وَعَلَى وَالِدِهَا . تَصَارَعَ مَنْ كَانُوا مَعِي عَلَى اِقْتِسَامِ مَا أَسْمَوْهُ اَلْغَنَائِمَ ، أَهْلُ بَيْتِهَا ، لَكِنِّي لَمْ أَتَصَارَعْ إِلَّا عَلَيْهَا هِيَ ، و أَعْلَمُ أَنَّهَا لَوْ أَبْصَرَتْنِي لَهَرْوَلَتْ نَحْوِي ، فَقُلْتُ لِلْوَاقِفِينَ :
*تِلْكَ اَلْفَتَاةِ هِيَ نَصِيبِي ، وَ أَنَا قَائِدُكُمْ فِي تِلْكَ اَلْعَمَلِيَّةِ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدُ مِنْكُمْ اَلْحَيْلُولَةُ دُونَ رَغْبَتِي .

وَتَقَدَّمْتُ نَحْوهَا أَخِذًا بِيَدِهَا اَلْمُرْتَعِشَةِ ، حَاوَلَتْ أَنْ تُقَاوِمَ ، لَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ ، فَقَدْ أَنْهَكَهَا اَلْفِرَاقُ وَأَفْقَدَهَا اَلْقُدْرَةَ عَلَى اَلْمُقَاوَمَةِ ، فَاسْتَسْلَمَتْ لِي ، وَانْطَلَقْنَا مِنْ بَيْتِهَا أَجُرَّهَا مِنْ خَلْفِي كَمَا يَحْسَبُ اَلْبَعْضُ ، لَكِنِّي كُنْتُ أَجْذِبهَا نَحْو اَلْأَمَانِ ، بَعِيدًا عَنْ هَؤُلَاءِ ، لَمْ أَجْرُؤ طَوَالَ اَلطَّرِيقِ مَعَهَا أَنْ

أُفْصِحَ لَهَا عَنْ هَوِيَتِي، اِجْتَزْنَا ذَلِكَ اَلطَّرِيق ، أَهَذَا اَلَّذِي طَالَمَا اِنْطَلَقْنَا فِيهِ فَرِحِيْن ، لَا نَخْشَى اَلْقَدَرُ ، ذَلِكَ اَلَّذِي خَبَّأَ لَنَا اَلْفِرَاق وَالْفَقْدِ وَالْقَسْوَةِ ، لِنَعُودَ إِلَى ذَلِكَ اَلْمَكَانِ أَجْسَادٍ ضَاعَتْ أَرْوَاحَهَا وَسَطَ اَلْخَرَابِ ، وَلَا شَكَ أَنَّ كُلَّ مَا دَارَ فِي عَقْلِيّ قَدْ أَخْبَرَتْ بِهِ هِيَ اَلْأُخْرَى نَفْسَهَا ، وَدَارَ بِدَاخِل تِلْكَ اَلشَّرِيدَةِ اَلْحَزِينَةِ اَلصَّامِتَةِ ثَوْرَةً ، حَاوَلَتْ أَنْ تَرْفُضَ ذَلِكَ اَلْوَضْع ، لَكِنَّهَا صُورَة لَمْ تَتَجَاوَزْ قَلْبَهَا .

بَلَغْنَا ذَلِكَ اَلْمَنْزِلِ اَلَّذِي اِتَّخَذْتُهُ مَنْزِلًا مُذْ وَطَّأَتْ أَقْدَامِي تِلْكَ اَلْأَرْضِ ، وَمَا إِنْ أَغْلَقْتُ بَابَهُ ، حَتَّى وَجَدْتُهَا سَقَطَتْ أَرْضًا، لَمْ تَغِبْ عَنْ اَلْوَعْي ، لَكِنَّهَا فَقَدَتْ قُوَّتُهَا ، فَرَكَعْتُ أَمَامُهَا و أَنَاْ أُزِيحَ ذَلِكَ اَلْقِنَاعِ مِنْ عَلَى وَجْهِي ، حَدَّقَتْ اَلنَّظَرُ بِوَجْهِي بِعَيْنَيْنِ يَمْلَؤُهُمْ اَلْحُزْنُ ، كَادَ اَلدَّمْعُ يَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا وَهِيَ تَتَفَوَّهُ بِاسْمِي :
_ حَمْزَة . مَنْ أَتَى بِكَ إِلَى هُنَا ؟!
وَقَدْ إِخْتَلَطَ اَلدَّمْعُ بِصَوْتِهَا وَأَكْمَلَت :
_ أَبْصَرْتُ مَا قَدْ حَلَّ بِنَا؟ ، جَدَّتِي وَأُمُّكَ . ثُمَّ أَبِي مِنْ بَعْدِهِمَا ، كُلُّهُمْ قَدْ رَحَلُوا ، حَتَّى أَيَّامِنَا اَلْحُلْوَةِ قَدْ مَاتَتْ ، وَلَمْ يَتَبَقَّ سِوَاكَ ، حَمْدًا لَكَ يَا اللَّه ، فَلَقَدْ أَبْقَيتُ لِي عَلَى شَيْءٍ طَالَمَا أَحْبَبْتَهُ .

قُلْتُ مُدَاعِبًا إِيَّاهَا :
*كُلُّ شَيْءٍ قَدْ رَحَلَ ، إِلَّا كَثْرَةَ حَدِيثِكِ يَا رُقَيَة .

تَبَسَّمَتْ بَسْمَةٍ مُتَكَسِّرَة وَقَالَتْ : _
_هَذَا مَا تَبَقَّى لِي وَسَطَ ذَلِكَ اَلْخَرَابِ . لَكِنْ أَخْبِرْنِي ، مَنْ أَتَى بِكَ مَعَ هَؤُلَاءِ ؟ ، وَلِمَ أنتَ مُتَلَثِّم وَجْهَهُمْ وَرُوحَهُمْ ؟! ،
نَهَضَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا وَعَادَتْ إِلَى اَلْوَرَاءِ وَهِيَ تَقُولُ:
إِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ أَنَّكَ أَصْبَحْتُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، لَا يَا حَمْزَة ، لَمْ أَعْهَدَكَ مِنْ قَبْلِ بِتِلْكَ اَلْقَسْوَةِ .

أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي قَائِلًا فِي أَسَفٍ :
*لَمْ يَكُنْ لِي طَرِيقٌ سِوَى ذَلِكَ ، اِتَّجَهْتُ نَحْوهُ عَلَّنِي أَسْتَرِيحُ مِنْ شِدَّةِ مَا عَانَيْتُهُ مُذْ رَحَلَتْ أُمِّي .

_ أَكَانَ اَلْقَتْلُ هُوَ اَلْحَلُّ ؟!

*أَوْلَى بِكَ أَنْ تَقُولِي " أَكَانَ اَلِانْتِقَامُ هُوَ اَلْحَلُّ " ؟

_ كَانَ ؟

*لَمْ يَكُنْ وَلَنْ يَكُنْ ، كَانَ سَرَابًا ، وَضَاعَتْ دُنْيَايَ فِدَاءً لِلسَّرَابِ . وَعَلَيْكِ اَلْآنَ أَنْ تَخْتَارِي بَيْنَ اَلْبَقَاءِ مَعِي كَزَوْجَةٍ ، أَوْ أَنْ تَذْهَبِيَ حَيْثُ شِئْتُ ، فَأَرْضُ اَللَّهِ وَاسِعَةٌ .

قَالَتْ فِي اِسْتِسْلَام : _
_ سَأَبْقَى يَا حَمْزَةً ، فَلَا مَلْجَأ لِي فِي تِلْكَ اَلدُّنْيَا سِوَاكَ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِعْل اَلْقَدَرُ اَلَّذِي رَتَّبَ لِقَاءَنَا ، حَتَّى نَتَهَيَّأَ لِتِلْكَ اَللَّحْظَةِ .

و تَسَاءَلَتْ عَجَبًا:
_ مَاذَا لَوْ كَانَ لِقَاؤُنَا فِي زَمَنٍ غَيْرِ هَذَا ؟!

مَرَّتْ اَلْأَيَّامُ ، وَلَمْ تَغِبْ عَنْ عَيْنَاهَا قَسْوَةَ مَا فَعَلْتُ يَوْم أَنْ قَتَلْتُ وَمَنْ مَعِي أَبَاهَا ، وَلَا أَدْرِي إِنْ كَانَتْ حَيَاتُهَا مَعِي دَلِيل كَافٍ عَلَى اَلْمَغْفِرَةِ أَمْ لَا . . . وَلَمْ أَكْتَفِ بِمَا قَتَلْتُ ، فَقَدْ سَرَى اَلْقَتْلُ فِي جَسَدِي مَجْرَى اَلدَّمِ ، وَذَاتَ يَوْمٍ . . . عُدْتُ إِلَيْهَا جَرِيحُ اَلْجَسَدِ ، كَمَا عُدْتُ مِنْ قَبْلُ جَرِيحِ اَلْقَلْبِ ، تَسَأَلْتُ حِينَهَا مَاذَا لَوْ مُتُ ؟!
هَلْ سَتَهْدَأُ نَارَهَا ، أَمْ لَا ؟!
وَهَلْ يَكُونُ اَلْقَتْلُ تَطْهِيرًا لِي مِنْ أَوْزَارِي ؟ ، أَمْ أَنَّ اَلْجَحِيمَ هُوَ مُسْتَقَرِي ؟
وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِمَّا فَعَلْتُ و جَنَيْتُ عَلَيْهَا وَعَلَى وَالِدِهَا مِنْ قَبْل ، لَكِنَّهَا لَمْ تَبْتَعِدْ ، شَعَرْتُ بِأَنْفَاسِهَا بِجَانِبِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَ أَنَاْ مُسْتَلْقٍ عَلَى اَلْفِرَاشِ ، تَمَنَّيْتُ أَنْ تُنْهِي حَيَاتِي بِطَلْقَةٍ طَائِشَةٍ ، أَوْ تَقْطَعُ أَنْفَاسِي وَ أَنَاْ مُسْجَى
أَمَامَهَا جَسَدٌ ضَعِيفٌ خَائِرٌ ، وَالْأَخِيرُ كَانَ أَفْضَلَ لِي حَتَّى تَنْجُوَ بِرُوحِهَا ، فَبِلَا شَكّ إِذَا مَا قُتِلْتُ بِوَسِيلَةٍ مُبَاشِرَةٍ ، سَيُحَزُ رَأْسُهَا ، وَسَأَجْنِي عَلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى . كُنْتُ حِينَهَا أَسْمَعُ وَأُبْصَرَ بَلْ وَأَشْعُر ، شَعَرْتُ بِحَيْرَتِهَا وَهِيَ جَالِسَةٌ بِجَانِبِي ، تُلَامِس أَصَابِعِ يَدِي بَيْنَ اَلْحِينِ وَالْحِينِ كَأَنَّهَا تَقُولُ لِي :

_ اِطْمَئِنَّ ، فَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ بَعْد، وَهَذِهِ يَدِي ، وَهَذَا أَنَا ، لَمْ تُلْقَ حَتَّى اَلْآنَ بِالْقَبْرِ .

وَتَقْتَرِبَ مِنْ صَدْرِي كَيْ تَسْمَعَ دَقَّاتُ اَلْقَلْبِ اَلْمَحْبُوسَةِ بِدَاخِلِهِ ، فَأَشْعُرُ حِينَهَا بِتِلْكَ اَلْغُصَّةِ ، لِتُضِيفَ لِحُزْنِي حُزْنًا أَخَرَ ، كَأَنَّهَا تَوَدُّ قَتْلِي دُونَ أَنْ تَقْتَرِفَ هِيَ ذَنْبًا ، فَتَقْتُلُنِي بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلْتُ ، وَأَقُولُ :
أَكُنْتُ قَاسِيًا إِلَى هَذَا اَلْحَدِّ ، أَمْ مِنْ أَجْلِ أُمِّي تَحَوَّلْتُ إِلَى أَحَدِ هَؤُلَاءِ اَلْغَرَابِيب ، نَعَمْ هِيَ أُمِّي ، وَأَغْلَى مَا كُنْتُ أَمْتَلِكُهُ فِي تِلْكَ اَلْحَيَاةِ ، وَهَذَا أَيْضًا أَبَاهَا ، وَمَشَاعِرُهَا نَحْوهُ لَا تَخْتَلِفُ عَنْ مَا كُنْتُ أُكِنُّهُ لِأُمِّي، فَأَذَقْتُهَا حُزْنًا لَمْ أَتَحَمَّلْهُ أَنَا اَلْقَوِيُّ مِنْ قَبْلٍ ، وَرَغْمُ ذَلِكَ كَانَ قَلْبُهَا أَرَقَّ مِنْ أَنْ تَقْتُلَنِي أَوْ تَنْتَقِمُ مِنِّي . كُنْتَ وَتَتَحَسَّنُ صِحَّتِي يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، فَأَرَاهَا تُحَضِّرُ لِي اَلطَّعَامُ ، وَتَجْلِسَ بِجَانِبِي تُسَبِحُ عَلَى أَصَابِعِ يَدِي وَتَذْكُرُ اللَّه ، وَتَتَأَوَّهَ كُلَّمَا قَالَتْ :
اللَّه . . . اللَّه .

وَيْكَأَنَّهَا تَتَذَكَّرَ ذَلِكَ اَلْحُزْنِ اَلَّذِي سَبَبْتَهُ لَهَا يَوْمًا مَا ، فَزَادَ تَعَلُّقِي بِهَا أَكْثَرُ مِنْ ذِي قَبْل ، وَوَدَدْتُ أَنْ أُبْصِرُ فِي عَيْنَيْهَا لَمْعَةً أُخْرَى غَيْرَ لَمْعَةِ اَلدَّمْعِ ، لَمْعَةُ مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ بَلْ وَحُبٍّ ، فَإِلَى أَيْنَ ذَهَبَتْ رُوحَهَا اَلْمُنْطَلِقَة ؟ ،
هَلْ قُتِلَتْ ؟!
وَإِنْ كَانَ ، فَمَتَى سَتُبْعَثْ ؟!
وَكَيْفَ ؟!
وَبَعْد مُرُورِ شَهْرٍ مِنْ إِصَابَتِي ، وَتَمَامْ شِفَائِي ، وَجَدْتُهَا تَخْطُو نَحْوِي فِي خُطُوَاتٍ وَجِلَةٍ ، وَقَدْ كَسَتْ اَلْحَيْرَةُ مَلَامِحَ وَجْهِهَا ، فَأَبْصَرْتُ عَيْنَاهَا حَائِرَةً شَارِدَةً ، غَطَّاهَا اَلدَّمْعُ كَمَا غَطَّى اَلشَّفَقُ اَلْأَحْمَرُ اَلْفَضَاءُ مِنْ حَوْلِنَا ، لَكِنْ لَمْ أَعْبَأْ ،
وَأَكْمَلتُ مَا بَدَأْتُ :
* أَتَعْلَمِينَ أَنَّنِي طَالَمَا أَحْبَبْتُ اَلْفَضَاءُ ، وَكَرِهْتُ تِلْكَ اَلْجُدْرَانِ؟ " مُشِيرًا لِلْبَيْتِ مِنْ وَرَائِنَا " جَلَسَتْ بِجَانِبِي وَأَسْنَدَتْ رَأْسَهَا عَلَى كَتِفِي وَهِيَ تَقُولُ بِصَوْتٍ حَزِينٍ :

_ أَلاَ سُخْرِيَةَ اَلْقَدَرِ ، وَدَدْتُ قَتْلَكَ مِنْ قَبْل اِنْتِقَامًا لِأَبِي وَبَلَدِي وَنَفْسِي ، قُلْتُ حِينَهَا إِذَا مَا فَشَلْتُ وَقُتِلْتُ ، سَأَكُونُ أَحَدَ اَلشُّهَدَاءِ ، فَمَنْ مَاتَ دُونَ دِينِهِ وَأَهْلِهِ وَنَفْسِهِ شَهِيد ، وَ اللَّه مُطَّلِعٌ ، وَيَعْلَمَ خَائِنَة الْأَعْيُن ، وَأَكْمَلَتْ سَاخِرَةً :
_ لَكِنْ اَلْوَيْلُ لِلْقَلْبِ إِذَا حَنَّ وَأَحَبَ ، حَنِنْتُ لَكَ وَأَشْفَقْتُ عَلَيْكَ وَ أَنَا أَسْتَمِعُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى صَوْتِكَ صَارِخًا ، نَادِمًا ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
_ إِذَا كَانَ اللَّه تَعَالَى قَدْ قَالَ : " فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ " لَكِنَّكَ لَمْ تَتُبْ ، وَلَا زِلْتُ تَقْتُلُ وَتَسْفِكُ اَلدِّمَاءُ ، وَمَا كَانَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَقْتُلَكْ .

*هَا أَنَا أَمَامُكِ ، لِمَ تَتَرَدَدِينَ فِي قَتْلِي ؟!
فأَنَا أَوَدُّ أَنْ أُقْتَلَ، لَعَلَّ اَلْقَتْلَ يُطَهِّرُنِي مِنْ بَعْضِ أَوْزَارِي . رَفَعَتْ رَأْسَهَا ، وَأَطَالَتْ اَلنَّظَرَ فِي عَيْنِي وَهِيَ تَقُولُ :

_ وَمَنْ سَيُرَبِي اِبْنُنَا اَلَّذِي مَا زَالَ فِي عَالَمِ اَلْغَيْبِ .

اِنْتَفَضْتُ قَائلًا :
* اِبْنُنَا . . . اِبْنُنَا.

حَقًا، أَلَا سُخْرِيَةَ اَلْقَدَرِ ، يُكْتَبْ لِي اِبْن ، حَتَّى لَا يَنْتَهِي اِسْمِي إِذَا مِتُّ ، فَكَمْ تَمَنَيْتُ أَنْ يَخْسِفَ اللَّه بِي اَلْأَرْضُ ، وَيُمْحَى وُجُودِي مِنْ ذَاكِرَةِ اَلْجَمِيعِ ، فَأُصْبِحُ بِلَا مَاضٍ ، كَأَنِّي لَمْ أُخلَقْ.

تَسَاءَلَتْ مُتَعَجِّبَةً :
_ لِمَاذَا اِلْتَقَيْنَا ؟!

قُلْتُ فِي نَفْسِي يَا بُنَيَّ حِينِهَا :
لِأَنَّ كُلًّا مِنَّا سَطْرٍ فِي قِصَّةِ صَاحِبِهِ ، كَانَ ذَلِكَ اَلسَّطْرِ أَلَم أَوْ فَقْدٍ أَوْ ضَعْفٍ . لَا يَهُمُّ سِوَى أَنْ تَكْتَمِلَ اَلْقِصَّةُ . وَلَا أَوَدُّ أَنْ أُصْبَحَ سَطْرًا مُؤْلِمًا مِثْلَمَا كَانَ قَاسِم لِي ، وَمِثْلَمَا كُنْتُ لِأُمِّكَ .

_ أَبَعْدَ كُلُّ هَذَا تَوَدُّ اَللِّقَاء؟